من بلاغة
القرآن الكريم عن إقامة الصلاة

الدكتور

بغدادي إبراهيم الصحابي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في الكلية

مقدمة

الحمد لله خالق الألسن واللغات ، واضع الألفاظ للمعاني بحسب ما اقتضته حكمه البالغات ، الذي علم الأسماء كلها واظهر بذلك شرف اللغة وفضلها ، والصلاة والسلام علي سيدنا محمد أفصح الخلق لسانا ، وأعربهم بيانا ، وعلي آله وصحبه اكرم بهم أنصاراً وأعواناً ٠

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن - وبعد

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز، ونوره الهادي ، وآياته المرشدة والمشرعة والمعلمة ، هو الذي لا تنقضي عجائبه والذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا (إنا سمعنا قرأنا عجبا يهدى إلي الرشد فأمنا به)

و من أهم مواطن الإعجاز في كتاب الله اختيار الألفاظ ، أي : الدقة المتناهية ، كما أن اللفظة مستقرة في مكانها ومتلائمة ومنسجمة مع أخواتها ، كما أن معناها يؤثر في غيرها ومعناها يتأثر بالمعاني التي تكتنفها ، كما أنها في بعض الأحيان تتكرر في عدة مواضع ، ومن الملاحظ بعد عميق التأمل أنها – أي اللفظة – لها سمتها الذي يميزها في موضعها عن بقية المواضع ، نظرا لاختلاف السياقات والمقامات والأغراض٠ ويعرف هذا بطول التأمل ودقة المقارنات ، ومعرفة أسباب النزول ، ومعونة السياق والمقام ، والإلمام بالمعاني التي وضعتها اللغة للفظة ٠

واخترت من تلك الألفاظ لفظة الصلاة والتي كثر استعمالها في كتاب الله، وتنوعت سياقاتها ، وتباينت أغراضها ، مع اختلاف ترتيبها مع غيرها من الصفات ، وهذا يدل علي عظيم قدرها ، وجليل منزلتها ، وعلو مكانتها وشرف أغراضها ٠ والحديث عن إقامة الصلاة أخذ حظا وافراً ونصيبا كبيرا ، وذلك لأنه متعلق في معظمه بأهل الإيمان ، وأهل الإيمان يصلون ولكن ربما يحدث منهم ما يخل بإقامتها، والحديث عن إقامة الصلاة اخذ ألوانا مختلفة، وسلك القرآن به طرقا متباينة

فاخبر الله عن قوم أقاموا الصلاة ، وهذا الإخبار هو من المدح والثناء ، واخبر عنهم في مواضع أخري بأنهم يقيمون الصلاة بالفعل المضارع لإفادة الاستمرار والتجدد لأن الصلاة لها أوقات معلومة ومواقيت محدودة ، وتارة يطلب من أهل الإيمان إقامة الصلاة بصيغة المضارع ، أي يذكرهم بتجدد إقامتها كلما حان وقتها ٠

وأمر الله بإقامة الصلاة كافة الناس ، فأهل الإيمان المقيمون للصلاة الأمر بالنسبة لهم هو المحافظة والمداومة، ولغيرهم من أهل الكتاب والكفار ، والمراد ابتداء فعل ذلك وإنشائه مع المداومة والمحافظة ٠

وعبر بالاسم عند الحديث عن إقامة الصلاة في مقامات المدح والثناء لان ذلك أبلغ لما فيه من إفادة الثبوت والدوام أو طلب ذلك من الله-تعالى- كما حصل من نبي الله إبراهيم – عليه السلام (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) (ابراهيم:٤٠)

أما لفظ الصلاة بدون الإقامة فقد ورد بصيغ متعددة ، منه : فعل الأمر والفعل الماضي والفعل المضارع ، وفي سياق النهي ، وفي سياق الشرط ، وفي سياق الجملة الحالية و ووقع مجرورا ، وورد هذا اللفظ مفردا ومجموعا وورد مفعولا، ومضافا ومضافاً إليه ، ووردت إضافته إلي ضمير المخاطب المفرد وضمير الغائب المفرد والجمع ، وضمير المتكلم المفرد وبصيغة اسم الفاعل وورد اسما للمكان ، وإلي غير ذلك من بقية الصيغ

ولكن سوف تقتصر الدراسة هنا في هذا البحث على إقامة الصلاة

وقد تتبعت هذا اللفظ تتبعا دقيقا حيث جمعت الشبيه إلي الشبيه والنظير إلي النظير ، وأشرت قدر المستطاع إلي ما هديت إليه من أسرار النظم الحكيم ، مستعينا بالله- تعالي – وراجعا إلي أئمة هذا الفن من المفسرين ، والله أسأل أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم .

أقاموا الصلاة

جاء التعبير عن إقامة الصلاة بالفعل الماضي في عدة مواضع ، وقد تباينت التعبيرات حسب المقام الذي ورد فيه هذا الوصف ، وفي معظمها ورد ذلك ضمن أوصاف لأهل الإيمان والصلاح .

وتجلت براعة القرآن الكريم في ضم الأوصاف المناسبة ، والتي يحتاج بعضها إلى بعض ، والمقام الذي ذكرت فيه هو الذي يعين على فهم التناسب ، ومعرفة سبب اختيار وصف دون وصف ، أو تكرار وصف في مقامات متعددة ، أو تقديم وصف على وصف في مقام ، وتأخيره عنه في مقام آخر ، ومن ذلك قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة:٢٧٧)

جاءت الآية الكريمة بعد الحديث عن الربا وأهله من حيث أوصافهم وما ينتظرهم من العواقب الوخيمة ، وأن الربا لا يحقق لهم رغائبهم بل يأتي بعكس ما يقصدون ، وهذا المسلك من شأنه يزرع الغيرة والخوف في نفوس المرابين ، ويثبت أهل الإيمان على إيمانهم ، ويزيدهم حرصاً على التمسك بما هم عليه من أوصاف ، و خاصة الصلاة آلتي تنهى عن المنكر والذي منه الربا ، والزكاة آلتي تنمى المال ، عكس الربا الذي يمحقه .

قال صاحب التحرير والتنوير عند تفسيره لهذه الآية : « جملة معترضة لمقابلة الذم بالمدح ..والمقصود التعريض بأن الصفات المقابلة لهاته الصفات صفات غير المؤمنين ، والمناسبة تزداد ظهوراً لقوله : (وآتوا الزكاة ».(١)

وفي الموصول وصلته ، وما عطف عليهما ، ما يشير إلى الخبر ويمهد له ويشوق إليه .

ويعلل صاحب روح المعاني لذكر الصلاة والزكاة بعد العمل الصالح بقوله : « تخصيصهما بالذكر بعد اندراجهما في الأعمال ، للتنبيه على عظم فضلهما ، فإن الأولى أعظم الأعمال البدنية ، والثانية أفضل الأعمال المالية . » (٢)

وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد لطف وتشريف . (٣)

١- التحرير والتنوير ج ٣ ص ٩٣ –الطاهر بن عاشور –الطبعة التونسية

١ـــروح المعاني ج ٣ ص ٥٢ . -اسم الكتاب :: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني-- اسم المؤلف :: محمود الألوسي أبو الفضل-- وفاة المؤلف :: ١٢٧٠-- دار النشر :: دار إحياء التراث

٢ـــتفسير أبي السعود ج ١ ص ٢٦٧ . ١٧ -- تفسير أبي الصعود -- اسم المؤلف :: محمد بن محمد العمادي أبو السعود وفاة المؤلف ::

ولفظ العندية يشعر بالثقة والاطمئنان ، وفي قوله : (لهم أجرهم) اعتزاز بهم ، وتخصيص لهم مع التعريض بمن سبق ذكرهم ، وزيادة في تحسرهم ، وندمهم على عدم الاستجابة ، والانصياع لأوامر خالقهم -- جل وعلى --، وهذا أثقل وأشد على نفوسهم من العذاب نفسه .

وقوله تعالى : **(وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) (لأعراف:١٧٠)**

لا ريب أن التمسك بالكتاب من الاستجابة لكل ما فيه من أوامر ونواهي يحتاج إلى مجاهدة ، وعزم وصبر ، ومخالفة النفس والشيطان والهوى ، وفي نفس الوقت يجب أن يكون هذا خالياً من التنطع ، والتزمت ، والتميع ، قال تعالى مخاطباً نبيه يحي --عليه السلام – **(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً) (مريم:١٢)**

ولهذا كانت قراءة { يمسكون) بالتشديد أدل على هذا المعنى ، ومؤكدة له -- ، « قال الواحدي : والتشديد أقوى ، لأن التشديد للكثرة ، وهاهنا أريد به الكثرة ،لأنه يقال:أمسكته، وقلما يقال :أمسكت به » (١)

وقال صاحب التحرير والتنوير عن مناسبة هذه الآية لما قبلها « وقعت جملة [والذين يمسكون بالكتاب] إلى آخرها ، عقب التي قبلها لأن مضمونها مقابل حكم التي قبلها ، أن هؤلاء الخلف الذين أخذوا عرض الأدنى قد فرطوا في ميثاق الكتاب ، ولم يكونوا من المتقين ، فعقب ذلك بشارة من كانوا ضد أعمالهم ، وهم الآخذون بميثاق الكتاب ، والعاملون ببشارته بالرسل ، وآمنوا بمحمد – سلى الله عليه وسلم – فأولئك يستكملون أجرهم ، لأنهم مصلحون ... ، ويحتمل أن المراد بالذين يمسكون بالكتاب : المسلمون ، ثناء عليهم بأنهم الفائزون في الآخرة ، وتبشير لهم بأنهم لا بسلكن بكتابهم مسلك اليهود بكتابهم » (٢)

وجاءت إقامة الصلاة مقترنة بالتمسك بالكتاب لأن الصلاة سبب في إصلاح القلوب، والتمسك بالكتاب سبب في إصلاح الحياة بكل شؤونها ، أو لأن الصلاة من التشريعات التي يجب المحافظة والمداومة عليها ، وهذا خلاف بقية التشريعات « وتخصيصها بالذكر من

---

٣) ـــ مفاتيح الغيب ج ١٣ ص ٣٣٥ . -- تفسير الرازي ، اسم المؤلف – فخر الدين الرازي – الناشر دار الغد العربي مضر القاهرة.

٤) ـــ التحرير والتنوير ج ٩ ص ٢٦٤ .

بين سائر العبادات مع دخولها في التمسك بالكتاب لإنافتها عليها ، لأنها عماد الدين ، ومحل الوصول . » ([1])

ولماذا كان التعبير عن التمسك بالكتاب بلفظ المضارع ، وعن إقامة الصلاة بلفظ الماضي ؟ أجاب عن هذا التساؤل صاحب روح المعاني بقوله : « ولعل التعبير في المشهور للدلالة على أن التمسك أمر مستمر في جميع الأزمنة ، بخلاف الإقامة فإنها مختصة بالأوقات المخصوصة »([2])

وذيلت الآية بقوله [إنا لا نضيع أجر المصلحين] وقد افتتح هذا التذييل بضمير الجمع المؤكد بـ[إن] وهو يشير إلى الذات العلية ، ويشعر بالعظمة المطمئنة ، والمؤكدة لتحقيق ما بعده من أجر ، وثواب .

ووضع الظاهر موضع الضمير ، وهذا مترتب على الرأي القائل : بأن الجملة في محل رفع خبر لما قبله . قال الألوسي : (ووضع الظاهر موضع المضمر بناء على أن الأصل لا نضيع أجرهم ، إلا أنه عبر بما ذكر تنبيهاً على أن الصلاح كالمانع من التضييع ، لأن التعليق بالمشتق يفيد علية مأخذ الاشتقاق ، فكأنه قيل : لا نضيع أجرهم لصلاحهم . ، وقيل الخبر محذوف ، والتقدير : والذين يمسكون بالكتاب مأجورون ، أو مثابون ، وقوله –سبحانه : {إنا لا نضيع } الخ حينئذ اعتراض مقرر لما قبله .) ([3])

وقوله تعالى : (فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (التوبة:٥)

في الآية الكريمة يعلم الله المسلمين كيف يتعاملون مع أهل الشرك بعد فشل كل المحاولات في إقناعهم بالإسلام ، أو عدم تصديهم لصاحب الدعوة – صلى الله عليه وسلم -- ، وأصحابه ، بعد أعوام عديدة من التعذيب والتنكيل ، وهذا لا يعني أن الإسلام دين تسلط ، وحرب أو إبادة أو غير ذلك من الدعاوى الكاذبة ، كل هذه الدعاوى تنزاح عند قراءة تاريخ المشركين مع المسلمين قبل نزول هذه الآيات .

---

١ -- روح المعاني ج ٧ ص ٩٨ .
٢-- روح المعاني ج ٧ ص ١٩٨ .
٣ – روح المعاني ج ٧ ص ٩٨ .

والعلة في الجمع بين القتل ، والأسر، والحصر ، والترصد هي اختلاف أحوال المشركين ، فمنهم من يقاتل ، ويصر على الاستمرار في القتال ، فهذا الصنف لا يجدي معه إلا القتل ، وصنف عند التمكن منه ، يفضل الأسر على الموت ، ويحجم عن القتال حينئذ ، وهذا الصنف يفضل أسره ، لأن أسره ربما يعود بالنفع على المسلمين ، مثل إنقاذ أسراهم ، أو الفداء ، أو السبي ، أو غير ذلك ، وصنف ثالث يتحصن بحصون لعلها تمنعه من القتل ، وليس في نيته المهادنة أو المصالحة ، وإنما قصده الكر على المسلمين ، فهؤلاء يحصرون ، ويراقبون ، وترصد كل تحركاتهم ، والذي يتأمل هذه العقوبات التي تنوعت يجدها لا تخرج عما ذاقه المسلمون من ألوان العذاب وصنوفه ، من القتل ، أو الحصار ، أو الترصد ، وهكذا حتى يكون الجزاء من جنس العمل (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (البقرة:١٩٤)

ثم جاءت التوبة الدالة على الإيمان ، والمترجم عنها بالعمل البدني وهو الصلاة ، والعمل المالي وهو الزكاة المؤدية إلى التعارف والتآلف بينهم

وذيلت الآية بما يزيل الآثار المترسبة في نفوس المسلمين من أذى المشركين ، والتنكيل بهم ، حتى لا يحملهم ذلك على تجاهل التوبة ، والدخول في الإيمان من قبل المشركين ، لأن الله –تعالى هو الخبير بهم ، والمطلع على أعمالهم ، قد غفر لهم كل ما بدر منهم قبل الإسلام ، لأن الإسلام يجب ما قبله ، فدخولهم في الإيمان ، وتوبتهم ينفيان عنهم وصف الشرك .

والتعبير بـ(إذا) في أول الآية يدل على الحرص والتأكد من انتهاء الأشهر الحرم ، حتى لا يقع المسلمون في المحظور، بأن تسول لهم أنفسهم انتهاز فرصة غفلة أهل الشرك – وهذا يدل على سماحة الإسلام وعدالته حتى مع أهل البغي والعدوان .

واستعمال– إن –عند الحديث عن توبتهم ، وصلاتهم ، وزكاتهم يدل على قلة الرجاء في ذلك من قبل المسلمين ، أو نظر القرآن إلى الغالب .

والتعبير عن ترك قتال المشركين بعد إيمانهم بقوله (خلوا سبيلهم) تعبير مشاع عند العرب ، قال صاحب التحرير والتنوير (وهذا المركب مستعمل هنا تمثيلاً في عدم الإضرار بهم، ومتاركتهم ، يقال : خلي سبيلي ، أي : دعني وشأني . قال جرير :

خلي السبيل من يبني المنادبة

وابرز ببرزة حيث اضطرك القدر

وهو مقابل للتمثيل الذي في قوله :{ واقعدوا لهم كل مرصد } ([١])

وجملة { إن الله غفور رحيم } تذييل أربد به حث المسلمين على عدم التعرض بالسوء للذين يدخلون الإسلام من المشركين ، وعدم مؤاخذتهم لما فرط منهم ، والمعنى : اغفروا لهم لأن الله قد غفر لهم ، وهو غفور رحيم ، أو اقتدوا بفعل الله إذ غفر لهم ما فرط منهم كما تعلمون ، فتكونوا أنتم بتلك المثابة في الإغضاء عما مضى . ([٢])

وقوله تعالى : **﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة:١١)**

والآية هنا جاءت بنفس الصيغة التي جاءت عليها الآية السابقة ، من حيث اشتراط التوبة و وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، إلا أن هناك جاء عقب الأمر بقتال المشركين وحصارهم ، والترصد لهم ، لذلك ناسب أن برتب عليه تخلية سبيلهم ، أما هنا فرتب على التوبة « أنهم يصيرون إخواناً للمؤمنين ... وقد حصل من مجموع الآيتين أن توبتهم توجب أمنهم و وأخوتهم ، ومن لطائف الآيتين أن جعلت الأخوة مذكورة ثانياً، لأنها أخص الفائدتين من توبتهم ، فكانت هذه الآية مؤكدة لأختها في أصل الحكم » ([٣])

وقوله { فإخوانكم } خبر لمحذوف أي : فهم إخوانكم ، وصيغ هذا الخبر بالجملة الاسمية للدلالة على أن إيمانهم يقتضي ثبات الأخوة ، ودوامها ، تنبيهاً على أنهم يعودو ن كالمؤمنين السابقين من قبل في أصل الأخوة الدينية . ([٤])

وخص الصلاة لأنها ترقق القلب ، ورقة القلب تحمل على الأخوة ، وفهم منه أن الصلاة التي لا تحمل على ذلك لم تحقق الغرض المرجو منها ، ولعل في صلاة الجماعة ما يشير إلى ذلك .

أما الزكاة فترتب الأخوة عليها واضح ، فهي مظهر من مظاهر أخوة الغني للفقير ، والتي ينتج عنها أخوة الفقير للغني ، وعدم حقده عليه ، وتمنيه دوام غناه لأنه يعود عليه بالنفع ، كما أن فقر الفقير ابتلاء للغني وتمحيص ، وتطهير له ، فلا غنى لأحدهما عن الآخر ، فالزكاة تنظم علاقة المجتمع المسلم ، وترفع الأحقاد والأضغان بين طبقاته .

وذيلت الآية بقوله { ونفصل الآيات لقوم يعلمون } « حيث عطف على جملة { فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين } لأنه به أعلق ، لأنهم إن تابوا

١-- التحرير والتنوير ج ١٠ ص ١١٦ -- ١١٧ .
٢-- التحرير والتنوير ج ١٠ ص ١١٧
٣ -- التحرير والتنوير ج ١٠ ص١٢٧
٤ -- التحرير والتنوير ج ١٠ ص ١٢٧

صاروا إخواناً للمسلمين فصاروا من قوم يعلمون ، إذ ساووا المسلمين في الاهتداء بالآيات المفصلة . وحذف مفعول يعلمون لتنزيل الفعل منزلة اللازم إذ أريد به : لقوم زوي علم وعقل » ([1])

وقوله تعالى : **﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد:٢٢)**

عطفت هذه الأوصاف على أوصاف سبقت ، حيث امتدح الله أصحابها ، وتلك الأوصاف هي : الوفاء بعهد الله – تعالى - ، وعدم نقض الميثاق ، ووصل ما أمر الله به أن يوصل ، وخشية الله – تعالى - ، والخوف من سوء الحساب ، ثم ذكرت هذه الآية الصبر ، والمراد به الصبر على البلاء ، والصبر على النعمة ، والصبر على الطاعات ، وقيد هذا الوصف بقيد لابد من تحققه ، وهو أن يكون ذلك لوجه الله – تعالى – فإن كان لغيره فلا يقبل ، ولا يستحق صاحبه الجزاء المترتب عليه .

والصبر لغير وجه الله كثير ومنه :

« ١ – أن يصبر ليقال ما أكمل صبره ، وأشد قوته على تحمل النوازل

٢ – أن يصبر لئلا يعاب بسب الجزع .

٣ – أن يصبر لئلا تحصل شماتة الأعداء.

٤ – أن يصبر لعلمه بألا فائدة في الجزع .

فالإنسان إذا أتى بالصبر لأحد هذه الوجوه لم يكن ذلك داخلاً في كمال النفس وسعادة القلب»([2])

والصبر« ملاك استقامة الأعمال ومصدرها، فإذا تخلق به المؤمن صدرت عنه الحسنات والفضائل بسهولة ، ولذلك قال تعالى : (إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر-(سورة العصر) ، وأما الصلاة فلأنها عماد الدين ، وفيها ما في الصبر من الخاصية ، يقو تعالى: (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (العنكبوت:٤٥) وقوله تعالى : (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ) (البقرة:٤٥) ، وأما الإنفاق فأصله الزكاة ، وهي مقارنة الصلاة كلما ذكرت ، ولها الحظ الأوفى من اعتناء الدين بها ، ومنها النفقات والعطايا كلها ، وهي أهم الأعمال ، لأن بذل المال يشق على النفوس ،فكان له من الأهمية ما جعله ثانياً للصلاة.

١-- التحرير والتنوير -بتصرف ج ١٠ ص ١٢٨

٢-- تفسير الرازي ج ٩ ص ٢٣٥ .

وأعيد اسم الموصول هذا ، وما عطف عليه من الأسماء الموصولة ، للدلالة على أن صلاتها خصال عظيمة تقتضي الاهتمام بذكر من اتصف بها ، ولدفع توهم أن عقبى الدار لا تتحقق لهم إلا إذا جمعوا كل هذه الصفات » [١]

والصلاة من العبادات المتكررة ، وتحتاج إلى إتقان طهارتها وقراءتها ، وركوعها وسجودها ، والخشوع فيها ، لذلك عطفها على الصبر .

وكذلك الصلاة تهذب النفوس وتحمل على الخلال الحميدة ، وتنفر من الشح ، لذلك عطف الإنفاق عليها .

وإنفاق المال سراً يحسن في مواقف ، وإنفاقه علانية يحسن في مواقف أخرى ، لكن القرآن الكريم قدم صدقة السر لأنها ، تدفع ما عسى أن يكون من رياء أو من .

والعصمة لا تكون إلا للأنبياء والملائكة ، فكل مسلم عرضة لاقتراف الذنب ، لذلك وضع الشرع الحكيم علاجاً ناجعاً ،متكرراً بتكرر الذنب ، وهو أن تتبع السيئة الحسنة ، فهذا كفيل بمحوها ، ومحو آثارها المترتبة عليها في نفس المسلم ، { ويدرؤون بالحسنة السيئة }

وهذه الآية الكريمة والتي سبقتها قد اشتملتا على صلات بعضها بلفظ المضارع ، وبعضها بلفظ الماضي ، ويعلل صاحب – إرشاد العقل السليم – عند تفسيره لقوله – تعالى - : { والذين صبروا } « وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاك الأمر في كل ما ذكر من الصلات السابقة واللاحقة أورد على صيغة الماضي اعتناء بشأنه ودلالة على وجوب تحققه ، فإن ذلك مما لا بد منه ، إما في نفس الصلات ، أو كما فيما عدا الأولى والرابعة والخامسة ، وفي إظهار أحكامها ، كما في الصلات الثلاث المذكورات فإنها وإن استقلت عن الصبر في أنفسها ، حيث لا مشقة على النفس في الاعتراف بالربوبية ، والخشية ، والخوف ، لكن إظهار أحكامها ، والجري على موجبها غير خال عن الاحتياج إليه . » [٢]

وألاحظ أن النظم الكريم عدل عن الفعل الماضي إلى الفعل الضارع عند الحديث عن درء السيئة بالحسنة ، وقد علل صاحب التحرير والتنوير لذلك بقوله : « ثم أعيد أسلوب التعبير في المعطوف على الصلاة ، وهو قوله : { ويدرءون بالحسنة السيئة } لاقتضاء

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١٠ ص ١٢٦ – ١٢٨ – ١٢٩
(٢) -- تفسير أبي السعود ج ٥ ص ١٦

المقام إفادة التجدد ، إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء مما يحرص عليه ، لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت ، فوصف لهم دواء ذلك ، بأن يدرءون السيئات بالحسنات . » [١]

وقدم الجار والمجرور في قوله : { بالحسنة } للاهتمام بها ، وعلو شأنها ، والحث على فعلها . وفعل السيئة لم يكن مانعاً من الثناء عليهم ، إما لأنهم غير معصومين ، أو لأن سيئاتهم قد محيت ، فكأنها لم تكن .

ثم ذيلت الآية بالجزاء الذي ينتظر أصحاب تلك الصفات { أولئك لهم عقبى الدار } وصدر هذا التذييل باسم الإشارة المؤذن بأن أصحاب تلك الصفات جديرون بما سيذكر بعد اسم الإشارة من جزاء ، وفيه اختصار شديد ، إذ لولاه لكرر الجزاء مع كل وصف ، وهذا من شأنه يؤدي إلى ترهل الأساليب – وتعالى كلام الباري عن ذلك علواً كبيراً .

وقد اشتمل التذييل على أسلوب الاختصاص ، وهو المستفاد من تقديم الجار والمجرور في قوله : { لهم } ليدل على اختصاصهم بذلك الجزاء دون غيرهم ، وفيه حث لهم على الثبات والدوام ، ويفهم منه التعريض بالذين لم يحافظوا عليها ، وزرع التحسر والندم في نفوسهم بسبب حرمانهم من الجزاء المترتب على الاتصاف بتلك الصفات .

والمتأمل لموقع إقامة الصلاة بين تلك الصفات يجد أنها في حاجة ملحة للصفات المتقدمة ، ولا تتأتى الإقامة الصحيحة إلا بها ، وكذلك الصفات التي جاءت عقبها فهي كالنتيجة المترتبة عليها ، والثمرة المرجوة من إقامتها .

وقوله تعالى:﴿ **الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾(الحج:٤١)

والتمكين في الأرض هو إعطاء المكنة « والتوثيق ، وأصله إقرار الشيء في مكان ، وهو مستعمل هنا في التسليط والتمليك ، والأرض للجنس ، أي : تسليطهم على شيء من الأرض ، فيكون ذلك شأنهم فيما هو من ملكهم ، وما بسطت فيه أيديهم .. » [٢]

وجاء ذكر إقامة الصلاة عقب حصول الشرط -- هو التمكين في الأرض -- لأنها مظهر من مظاهره ، وهي في احتياج إليه ، وأيضاً هي سبب في بقائه ، ودوامه و وفي التعبير بـ[إن] دون [إذا] إشارة إلى أن القليل من الذين يمكنون يفعلون ذلك ، ويفهم منه الإنذار الشديد لغيرهم .

---

(١) -- التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٢٩
(٢) التحرير والتنوير ج ١٧ ص ٢٨٠

ووصف إقامة الصلاة جاء مع التمكين في الأرض ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لأنها من أجل وأعظم ثمرات التمكين ، ولأنها إن أديت بإتقان وخشوع وخضوع فعلت العجائب في تغيير سلوك العبد ، فالشح المتمكن من قلب العبد يموت ، ويحيا السخاء ، فيصبح الإنفاق والبذل والعطاء عادة محببة إلى النفس ، وكل من يراه يتأسى به ويترسم خطاه ، وبذلك يكون قد أمر بالمعروف ونهى عن المنكر بفعله قبل قوله ، فإن حدث منه بعد ذلك قول وجد قبولاً ووقعاً وتأثيراً في نفوس سامعيه .

هذا إذا كان المراد بهم عامة المؤمنين ، أما إن كان المراد بهم الخلفاء والأمراء فالمراد بإقامة الصلاة الحث عليها ، والتشجيع لفاعليها ، والحمل على إخراج الزكاة ، ومباشرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهم أقدر على ذلك من غيرهم .

وإن كان المراد العلماء ، فإقامة الصلاة بيان ما ورد فيها من فضائل وتشريعات وأحكام، وكذلك الزكاة ، أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلأنهم أعلم الناس بالمعروف و أعلم الناس بالمنكر.

قال صاحب التحرير والتنوير « فأما إقامة الصلاة فلدلالتها على القيام بالدين ، وتجديد لمفعولها في النفوس ، وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متقاربين في نظام معاشهم ، وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمة من تلقاء أنفسهم . » [١]

وقال صاحب الكشاف : « فيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه ، وإعلاء كلمتهم » [٢]

وذيلت الآية بقوله { ولله عاقبة الأمور } للحث على القيام بما اشتملت عليه الآية من الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهناك من يمكنون ولا يقومون بحق التمكين ، ففيه تهديد لهم .

وتقديم المجرور هنا للاهتمام والتنبيه على أن ما هو لله فهويصرفه كيف يشاء . [٣]

وقوله تعالى : ﴿ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرِ**﴾ (فاطر:١٨)

---

(١) -- التحرير والتنوير ج ١٧ ص٢٨٠

(٢) -- الكشاف ج ٤ ص ٥٨، جار الله الزمخشري .دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت .

(٣) -- التحرير والتنوير ج ١٧ ص ٢٨٢

بدأت الآية الكريمة بتخويف المشركين المنكرين للحساب والجزاء وزرع اليأس في نفوسهم ، وقطع الرجاء والأمل ، فأوزارهم لا يحملها أحد عنهم ، ولو طلبوا ذلك من أعز الناس عليهم ، وهم الأقارب الذين يدفع بهم البلاء في الدنيا ، ويستعان بهم على الشدائد والأزمات ، ولكن هذا لن يكون يوم القيامة ، وهذا يدعو ا إلى استمرار ودوام التحسر والألم النفسي إلى أن يأتي ذلك اليوم .

{ ولا تزر وازرة وزر أخرى } إيجاز قرآني معجز ، فهذه الجملة بقلة ألفاظها استطاعت أن تخاطب كل أفراد المجتمع في كل عصر ومصر فالمسرفون على أنفسهم الذين تنكبوا الطريق وحادوا عن الحق ودعوا إلى الضلال يفتت هذا الإنذار الشديد أكبادهم ويجعلهم لا يهنؤن بعيش ولا متعة ولا لذة ، فأوزارهم لا يحملها أحد عنهم مهما ثقلت ومهما كثرت ، وفي الآية إشارة إلى عدل الله المطلق وأحكامه الفاصلة .

ونفس هذا الإنذار يدخل الراحة والسكينة في نفوس الصنف الآخر من المجتمع وهم المؤمنون المصدقون بالبعث والجزاء ، فلا تبعة عليهم من جحود الملاحدة وكفرهم بل التبعة يحملونها وحدهم ، وهذا من شأنه يقتلع المخاوف التي تثاور أهل الإيمان من جذورها عند دعوتهم وعدم استجابة أهل الضلال ، وهذا من شأنه يخلق في قلوبهم حب الدوام والاستمرار ، ما دامت تبعات الإلحاد لا يلحقهم منها نشئ .

والنفي الوارد في قوله { لا تزر } { لا يحمل } يدل على العموم والشمول حتى لا يفلت من ذلك أحد ، إنها قضية حاسمة محيطة .

ومن سمات البلاغة القرآنية أنه يلبس المعنويات ثوب المحسوسات ، حتى يتصور السامع أنه يرى هذا الشيء المعنوي ويشعر ما به من عظمة أو حقارة أو غير ذلك ، ومن هذا القبيل في الآية الكريمة تفسير الذنوب والآثام بالحمل الثقيل الذي يثقل الظهر « وأصل الحمل ما كان على الظهر من ثقيل فاستعير للمعاني من الذنوب والآثام » [١]

وبعد ما صور القرآن الكريم أصحاب الذنوب والآثام أكمل تصوير وأبينه ، والذي حمل في طياته عدم انتفاعهم بالإنذار ، عمد بعد ذلك إلى تسلية رسوله – صلى الله عليه وسلم – وتثبيته بذكر المقابل ، وهم الذين ينتفعون بالإنذار ، وذلك حتى لا تسأم نفسه ولا يتسرب الفتور إلى قلبه ولا تضعف همته أو تخور عزيمته عن تبليغ دعوة ربه .

وبدأت الجملة ب{إنما } وهي في أحسن مواقعها حيث التعريض بمن سبق ذكرهم من أرباب الضلال والفجور ، والثناء والمدح لأهل الخشية والعمل الصالح ، ولا يخفى هذا

---

(١) روح المعاني ج ٢٢ ص ١٨٤

الخطاب المشعر بالقرب للنبي – صلى الله عليه وسلم – ليكون أبلغ في التسلية والمؤانسة ، وتصبيره على الأذى والإعراض حتى يتم الله نوره وينشر دينه .

وأشار صاحب التحرير والتنوير إلى نوع القصر بقوله : « فالمقصود من القصر أنه قصر قلب ، لأن المقصود : التنبيه على أن لا يظُنّ النبي - صلى الله عليه وسلم - انتفاع الذين لا يؤمنون بنذارته، وإن كانت صيغة القصر صالحة لِمعنى القصر الحقيقي لكن اعتبار المقام يعين اعتبار القصر الإضافي. ونظير هذه الآية قوله في سورة يس {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب} وقوله: {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) في سورة ق ، مع أن التذكير بالقرآن يعم الناس كلهم. » [١]

ولا أوافق صاحب التحرير والتنوير على أن القصر قصر قلب ، كيف ؟ وقد استدل منذ قليل بقوله تعالى : { وذكر بالقرآن من يخاف وعيد } والواقع يؤكد
أنه – صلى الله عليه وسلم – كان ينذر الكل فلم يبق إلا أن يكون القصر قصراً ادعائياً ، لأنه هو المناسب والملائم لبلاغة القرآن ، حيث لم يعتد بإنذار الذين لا ينتفعون به وجعل إنذارهم كلا إنذار فثمرته منعدمة وفائدته غير مرجوة .

وأطلق الإنذار هنا على حصول أثره وهو الانكفاف ، أو التصديق به ، وليس المراد حقيقة الإنذار ، وهو الإخبار عن توقع مكروه ، لأن القرينة صارفة عن المعنى الحقيقي ، وهي قرينة تكرر الإنذار للمشركين الفينة تلو الفينة ، وما هو ببعيد عن هذه الآية ، فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنذر المشركين طول مدة دعوته ، فتعين أن تعلق الفعل المقصور عليه { الذين يخشون ربهم بالغيب } تعلق على معنى حصول أثر الفعل [٢]

وهذا الكلام فيه نظر لأن الإنذار في حق الكفار بسبب كفرهم ، وفي حق المؤمنين بسبب المعاصي والذنوب ، ولا عصمة لهم من ذلك ، والله تعالى يقول : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ) (الماعون:٤ و ٥) وهذا تخويف للمتكاسلين عن صلاتهم وكثير في كتاب الله آيات تخوف المؤمنين حتى لا يصروا على المعاصي ، وكذلك هدي النبي – صلى الله عليه وسلم -- .

وإقامة الصلاة عدم التفريط فيها كما يؤذن به فعل الإقامة والملاحظ هنا أن القرآن لم يذكر من أوصاف أهل الإيمان سوى وصفين فقط وهما الخشية وإقامة الصلاة .

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٩١
(٢) التحرير والتنوير ج ٢٢ص ٢٩٠

وقد علل صاحب التحرير والتنوير لذلك بقوله « ولما كانت هاتان الصفتان من خصائص المسلمين صار المعنى: إنما تنذر المؤمنين، فعُدل عن استحضارهم بأشهر ألقابهم مع ما فيه من الإيجاز إلى استحضارهم بصلتين مع ما فيهما من الإطناب، تذرعاً بذكر هاتين الصّلتين إلى الثناء عليهم بإخلاص الإيمان في الاعتقاد والعمل. » [١]

وقوله { ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه } يفهم منه أن أهل الخشية وإقامة الصلاة ممن تزكوا وما عداهم داخل في التعريض ، فهو مدح وثناء في حق أهل الإيمان ، وتعريض وسخرية بأهل الكفر .

وجملة {ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه} تذييل جار مجرى المثل. وذكر التذييل عقب المذيل يؤذن بأن ما تضمنه المذيَّل داخل في التذييل بادئ ذي بدء مثل دخول سبب العام في عمومه من أول وهلة دون أن يُخص العام به، فالمعنى: أن الذين خَشُوا ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة هم ممّن تزكى فانتفعوا بتزكيتهم، فالمعنى: إنما ينتفع بالنذارة الذين يخشون ربهم بالغيب فأولئك تزكوا بها ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه. والمقصود من القصر في قوله (فإنما يتزكى لنفسه)أن قبولهم النذارة

كان لفائدة أنفسهم ، ففيه تعريض بأن الذين لم يعبأوا بنذارته تركوا تزكية نفوسهم بها فكان تركهم ضرا على أنفسهم . » [٢]

ويرى الرازي : أن قوله { وإلى الله المصير } تذييل ومعناه أن « المتزكي إن لم تظهر فائدته عاجلاً فالمصير إلى الله يظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء ، والوازر إلم تظهر تبعة وزره في الدنيا فهي تظهر في الآخرة ، إذ المصير إلى الله » [٣] ويرى صاحب التحرير والتنوير : أن هذا التكميل للتذييل و{ أل } للجنس في المصير [٤]

وقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) (فاطر:٢٩)

وجاءت إقامة الصلاة هنا مع تلاوة الكتاب ليدل على أن تلاوته تجعل العبد ذا صلة بربه ، والصلاة من أعظم ثمرات التلاوة ، كما أن الصلاة من أهم أركانها تلاوة القرآن

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٩١
(٢) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٩١
(٣) تفسر الرازي ج ٢٦ ص ٢٣٤
(٤) أنظر التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٩١

المتمثل في أم الكتاب . { يتلون كتاب الله } أي يداومون على قراءته حتى صارت سمة لهم ، وعنواناً ، كما يشعر به صيغة المضارع ، ووقوعه صلة ، واختلاف الفعلين [١].

والمرادُ بكتابِ الله تعالى القُرآنُ. وقيلَ: جنسُ كتبِ الله فيكون ثناءً على المصدِّقين من الأممِ بعد اقتصاصِ حالِ المكذِّبين منهم ، وليسَ بذاك فإنَّ صيغة المضارع مناديةٌ باستمرارِ مشروعيةِ تلاوتِه والعملِ بما فيه واستتباعِهما لما سيأتي من توفيةِ الأجورِ وزيادةِ الفضل. وحملُها على حكايةِ الحالِ الماضيةِ مع كونِه تعسُّفاً ظاهراً ممَّا لا سبيلَ إليه كيفَ لا والمقصودُ التَّرغيبُ في دينِ الإسلامِ والعملُ بالقُرآن النَّاسخ لما بين يديهِ من الكتبِ ، فالتَّعرضُ لبيانِ حقِّيتها قبل انتساخِها والإشباعُ في ذكرِ استتباعها لما ذُكر من الفوائدِ العظيمةِ مَّما يُورث الرَّغبة في تلاوتِه والإقبالِ على العملِ بها. [٢]

ولا يوجد ما يدعو إلي القول بالتعسف، فاحتمال كون (أل }في الكتاب للجنس وارد لأنه يدخل فيه القرآن من باب أولى . كما أن هذا القول فيه ما يشير إلى الإنصاف ، ففيه تعريف للأمم السابقة أن كتاب الإسلام وهو القرآن لا يتجاهل منزلتهم ومكانتهم المتمثلين في الثناء عليهم بتلاوة الكتب .

وجيء في جانب إقامة الصلاة والإنفاق بفعل المضي لأن فرض الصلاة والصدقة قد تقرر وعملوا به فلا تجدد فيه، وامتثال الذي كلفوا به يقتضي أنهم مداومون عليه.

وقوله: (مما رزقناهم} إدماج للامتنان وإيماء إلى أنه إنفاق شكر على نعمة الله عليهم بالرزق ، فهم يعطون منه أهل الحاجة. ووقع الالتفات من الغيبة من قوله: {كتاب الله} إلى التكلم في وله: {مما رزقناهم} لأنه المناسب للامتنان.والمعنى: أنهم لا يريدون من الإنفاق إلا مرضاة الله تعالى لا يراءون به، فهم ينفقون حيث لا يراهم أحد وينفقون بمرأى من الناس فلا يصدهم مشاهدة الناس عن الإنفاق.

وفي تقديم السر إشارة إلى أنه أفضل لانقطاع شائبة الرياء منه، وذكر العلانية للإشارة إلى أنهم لا يصدهم مرأى المشركين عن الإنفاق فهم قد أعلنوا بالإيمان وشرائعه حبّ من حبّ أو كره من كره.و{يرجون تجارة} هو خبر {إن}. والخبر مستعمل في إنشاء التبشير كأنه قيل: لِيرجُوا تجارة، وزاده التعليلُ بقوله: {ليوفيهم أجورهم} قرينةٌ على إرادة التبشير. والتجارة مستعارة لأعمالهم من تلاوة وصلاة وإنفاق.ووجه الشبه مشابهة ترتب الثواب على أعمالهم بترتب الربح على التجارة.

---

(١) روح المعاني ج ٢٢ ص١٩٢
(٢) تفسير أبي السعود ج ٧ ص ١٥٠

والمعنى: ليرجوا أن تكون أعمالهم كتجارة رابحة. [١]

والفعل المضارع { يرجون } يدل على استمرار رجائهم وعدم انقطاعه ، كما أنه يوحي بعدم اتكالهم على أعمالهم ، رغم إتقانهم لها ومحافظتهم عليها ، لأن الاعتماد على العمل والاتكال عليه يحبطانه ، فقبوله والإثابة عليه بمحض فضل الله – تعالى -- .

وقوله تعالى {لَّن تَبُورَ } أي لن تكسدَ ولن تهلكَ بالخسران أصلاً صفةٌ لتجارةَ جيء بها للدِّلالةِ عل أنَّها ليستْ كسائرِ التِّجاراتِ الدَّائرةِ بين الرِّبح والخُسران لأنَّه اشتراءُ باقٍ بفانٍ. والإخبارُ برجائِهم من أكرمِ الأكرمينَ عِدَةٌ قطعيةٌ بحصولِ مرجوِّهم. [٢]

وقوله (لن تبور) ليس داخلاً في رجائهم ، وإنما هو تأكيد من رب العالمين ، لأنه لا يستطيع الحكم بعدم البوار إلا هو – سبحانه – وهذا يزرع الاطمئنان في قلوبهم ، والثقة في نفوسهم بقبول أعمالهم ، والإثابة عليها ، والدليل قوله بعد ذلك (ليوفيهم أجورهم) .

وقولُه تعالى: {لِيُوَفّيَهُمْ أُجُورَهُمْ } متعلقٌ بلَنْ تبورَ على معنى أنَّه ينتفي عنها الكسادُ وتنفُق عند الله تعالى ليوفيَهم أجورَ أعمالِهم {وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ } على ذلك من خزائنِ رحمتِه ما يشاءُ وقيل: بمضمرٍ دلَّ عليه ما عُدَّ من أفعالهم المرضيَّةِ ، أي : فعلُوا ذلك ليوفيَهم إلخ وقيل بـ يرجُون على أنَّ اللام للعاقبةِ {إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ } تعليلٌ لما قبلَه من التَّوفيةِ والزِّيادةِ أي غفورٌ لفرطاتِهم ، شكورٌ لطاعاتِهم ، أي مجازيهم عليها، [٣]

وذيل هذا الوعد بما يحققه وهو أن الغفران والشكران من شأنه، فإنّ من صفاته الغفور الشكور، أي الكثير المغفرة والشديد الشكر.... وأكد هذا الخبر بحرف التأكيد زيادة في تحقيقه، ولما في التأكيد من الإيذان بكون ذلك علة لتوفية الأجور والزيادة فيها. .... وأكد هذا الخبر بحرف التأكيد زيادة في تحقيقه، ولما في التأكيد من الإيذان بكون ذلك علة لتوفية الأجور والزيادة فيها. [٤]

وقوله تعالى (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (الشورى:٣٨)

بدأت الآية الكريمة بالاستجابة للرب سبحانه وهي استجابة عامة تشمل كل نواحي الحياة مما يقع فيها من الأوامر والنواهي .

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٠٦ ، ٣٠٧
(٢) تفسير أبي السعود ج ٧ ص ١٥٠
(٣) تفسير أبي السعود ج ٧ ص ١٥٠
(٤) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٠٨

وعرجت الآية بعد هذا العموم لبعض مظاهر الاستجابة وبدأ بالصلاة لأنها الأهم ، فهي الركن الثاني بعد الشهادتين ، فهي عماد الدين وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ، وهي الفارقة بين الكفر والإيمان ، وهي التي يفزع إليها المسلم عندما تلم به ملمة ، أو بغشاه كرب ، أو تحل به ضائقة ، وهي المنظمة لحياة الإنسان والمنظمة لأوقاته، والضابطة لسلوكه، وناهيك عن فوائدها الروحية ومنافعها البدنية

والمجتمع المكي في أمس الحاجة إلى إرثاء المبادئ وتقعيد القواعد ووضع الأسس ، ومن أهم المبادئ التي وضعها مبدأ الشورى الذي به صلاحها ، وفيه سر نجاحها، ورقي أخلاقها ، ويولد الألفة بين أفراد أبنائها ، ويقضي على الأنانية وحب الذات ،و يجعل كل فرد يشعر بالمسؤلية تجاه أمته وتجاه قضاياها ٠

ثم يأتي الإنفاق في مكة قبل فرض الزكاة ، حتى تتعود النفوس على البذل والعطاء ومساعدة الآخرين من المحتاجين خاصة ، والمسلمون قلة ، خاصة من حيث الموارد والمؤن ، وهذا من شأنه يقوي الروابط والصلات وبه تسود الألفة بين أفراد المجتمع مما يجعلهم في غنى عن غيرهم ٠

والآية الكريمة قد بينت تلك المعاني العالية والصفات السامية بأدق عبارة وأقوى معنى وأجمل أسلوب ، فالفعل الماضي المعبر به عن الاستجابة وإقامة الصلاة يدل دلالة كافية على تحقق ذلك فيهم خاصة وأن المخبر بذلك هو العليم الخبير ، وتصدير الآية بالموصول لما فيه من مدح وثناء بما في حيز الصلة ٠

« وأما الاستجابة لله فهي ثابتة لجميع من آمن بالله ، لأن الاستجابة لله هي الاستجابة لدعوة النبي – صلى الله عليه وسلم – فإنه دعاهم إلى الإسلام مبلغاً عن الله ، فكأن الله دعاهم إليه فاستجابوا لدعوته ، والسين والتاء في [استجابوا] للمبالغة في الإجابة ، أي : هي إجابة لا يخالطها كراهية ولا تزايد ، ولام له للتقوية ، يقال : استجاب له ، كما يقال : استجابة ، فالظاهر أنه أريد منه استجابة خاصة ، وهي إجابة المبادرة مثل أبي بكر وخديجة وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص ونقباء الأنصار أصحاب ليلة العقبة » [١]

وفي ذكر لفظ الرب وقد سبق ذكره تعليل للاستجابة وحث على الثبات عليها ، وفيه تعريض بمن يستجيب لغيره فيما يتعارض مع شرعة وأحكامه ، وفي إضافة الرب إلى ضميرهم مزيد تكريم وتشريف ٠

وقوله [وأمرهم شورى بينهم] نلحظ فيه إضافة الأمر إليهم وذلك ليدل على أن الشورى تكون في الأمور الخاصة بهم والتي لم ينزل فيها بيان ألهي أو تشريع نبوي ، وقوله [بينهم] فيه حرص على السرية التامة حتى لا تنتشر أمورهم ويترتب على ذلك ما يترتب من إلحاق الضرر والأذى من أعدائهم ، وفيه إشارة أيضاً إلى أنه تطلب مشورة أهل الرأي والمعرفة بالأمر الذي يستشار فيه ، لأن عدم المعرفة والخبرة ربما يوقع في المحظور ، فعدم مشاورة من لا علم عنده أولى وأنفع ٠

---

١ ـ التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١١١

والأمر اسم من أسماء الأجناس العامة مثل نشئ ، وإضافة اسم الجنس قد تفيد العموم بمعونة المقام ، أي جميع أمورهم متشاور فيها بينهم ، والإخبار عن الأمر بأنه شورى من قبيل الإخبار بالمصدر للمبالغة ٠ والإسناد مجاز عقلي لأن الشورى تسند للمتشاورين ، وأما الأمر فهو ظرف مجازي للشورى ، ألا ترى أنه يقال : تشاورا في كذا ، قال تعالى [وشاورهم في الأمر] فاجتمع في قوله : [وأمرهم شورى] مجاز عقلي واستعارة تبعية ، ومبالغة [١] ٠

وعند الحديث عن الاستجابة عبر بالجملة الفعلية ، وكذلك عند إقامة الصلاة ، أما عند الحديث عن المشورة فقد عبر بالجملة الاسمية (وجئ بالجملة الاسمية مع أن المعطوف عليه جملة فعلية للدلالة على أن التشاور كان حالهم المستمرة قبل الإسلام وبعده ، وفي الآية مدح للتشاور لا سيما على القول بأن فيها الإخبار بالمصدر) [٢] ٠

« وقد كانت الشورى بين النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب ، وكذا بين الصحابة – رضي الله عنهم – بعده – عليه الصلاة والسلام – وكانت أيضاً بينهم في الأحكام كقتال أهل الردة وميراث الجد ، و حد الخمر وغير ذلك ، والمراد بالأحكام ما لم يكن فيه نص شرعي، وإلا فالشورى لا معنى لها ، وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله عز وجل – إلى أراء الرجال ؟ والله – سبحانه – هو الحكيم الخبير ، ويؤيد ما قلنا ما أخرجه الخطيب عن علي كرم الله وجهه قال : قلت يا رسول الله الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شيء، قال : اجعلوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تعضوه برأي واحد] وينبغي أن يكون المستشار عاقلاً كما ينبغي أن يكون عابداً ، فقد أخرج الخطيب أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً [استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا] والشورى على الوجه الذي ذكرنا ، من جملة أسباب صلاح الأرض ٠٠٠» [٣]

ومن الملاحظ أن الآيات التي ورد فيها إقامة الصلاة والاتفاق لم يوجد ما يفصل بينهما من أوصاف إلا في هذا الموضع ، « ولعل فصله عن قرينه يذكر المشاورة لأن الاستجابة لله – تعالى – وإقامة الصلاة كانا من أثارها ، وقيل : لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات »[٤]

ومن الأوجه أن يقال إن المشورة أثر من أثار الاستجابة وإقامهم الصلاة ، وذكرها بعدهما يؤكد ذلك ٠

وقوله [ومما رزقناهم ينفقون] ولم يقل – ما رزقناهم ينفقونه – فذلك يوهم أن ما ندبوا إليه هو إنفاق الكل وهو غير مراد ٠

---

١ - التحرير والتنوير ج ٢٥ ص١١٢
٢ - روح المعاني جـ٢٥ ص٤٦
٣ - روح المعاني جـ ٢٥ ص ٤٦
٤ - روح المعاني جـ٢٥ ص٤٦

وهل يوجد شيء غير مرزوق ينفق منه لعله (إدماج للامتنان من خلال المدح ، وإلا فليس الإنفاق من غير ما يرزقه المنفق) [١] وفيه القضاء على شائبة المن أو التفضل ويؤكد ذلك إسناد الرزق إليه – تعالى – أو إشارة إلى الطيب من الرزق ٠

وعبر عن الإنفاق بالفعل المضارع [ينفقون] لأن الإنفاق أمر يتكرر ويحدث باستمرار ، ولم يرد التعبير عن ذلك بالصورة الاسمية إلا في موضع واحد وهو قوله تعالى **(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ) (آل عمران:١٧)** لأنها جاءت لذكر أوصاف المؤمنين وهي ثابتة فيهم ٠

ما هي الصفات التي جاءت قبل إقامة الصلاة ؟ ولماذا ؟ ، في آيتين قبل ذكر هذه الآية وردت صفات وهي – الإيمان ، والتوكل ، واجتناب الكبائر والفواحش وضبط النفس عن الغضب ويترتب عليه المغفرة ، والاستجابة لله وهذا الوصف معنا في هذه الآية ، وهذه الصفات منها ما هو ضروري ولازم فالصلاة بدونه لا تقبل ، مثل وصف الإيمان الذي صدرت تلك الصفات به ، أما بقية الصفات فهي تهيأ النفس و تصفيها لأداء صلاة خاشعة خالية من تأثير الذنوب والآثام ، وخالية من آثار الأحقاد والأضغان اللذين ينتجان عن الغضب إذا لم تصحبه مغفرة ، ثم تأتي الاستجابة المانعة والدافعة لكل العوائق التي من شأنها تفسد إقامة الصلاة وتجعلها في صورة حركات وسكنات ، لا خشوع فيها ولا تأثير لها ٠

ثم جاءت صفات عقب وصف إقامة الصلاة وهي الثمرة المرجوة من إقامتها مثل الشورى والاستمرار على الإنفاق ، وعدم الاستكانة والذلة لأهل الباطل والبغي ، (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) (الشورى:٣٩)

ثم أين الثواب والأجر المترتب على إقامة الصلاة وبقية الصفات كما تعودناه ؟ ، في هذه الآية الأجر والثواب جاء متقدماً ليكون كالحافز والمشجع على التمسك والمواظبة وذلك من قوله تعالى **(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الشورى:٣٦)** ثم عطف بقية الصفات التي سبق ذكرها ٠ لكن الأجر والثواب لم يصرح به وإنما أبهمه بذكر الموصول [ما] وذكروا صفتين له وهما الخيرية والبقاء ، وبالتأمل والتفكر يعلم أن الحديث عن الأجر بهذه الكيفية هو أبلغ من الذكر ٠

---

١ - التحرير والتنوير جـ٢٥ص١١٣

وأقام الصلاة

هذه صفة تختلف عن الصفة السابقة فقد عبر القرآن الكريم هنا بالفعل الماضي المسند إلى ضمير المفرد الغائب ، ومع مقارنتها بالصفة السابقة وهي المعبر عنها بالفعل الماضي المسند إلى واو الجماعة الدال على ضمير الغائبين وجدت أن هذه أقل وروداً من تلك حيث جاءت في موضعين فحسب ، أما تلك فجاءت في تسعة مواضع ، ولا بد من غرض يتعلق بالكثرة وكذلك القلة ، ولا ريب أن الفعل (أقاموا) الدال على الجماعة يوحي ويدل وينبه على أهمية الاجتماع لإقامة الصلاة ويحث على المحافظة والمداومة على ذلك ، والذي من مظاهره صلاة الجماعة والجمع والخسوف والكسوف ، وصلاة العيدين والتي يخرج من أجلها حتى أصحاب الأعذار ، إنه لمظهر واضح من مظاهر اتحاد الأمة واجتماعها وعدم تفرقها ، وبهذا تقوى وتسعد وتكبر في عيون غيرهم ، وفيه تأليف للقلوب وإذابة للفوارق ، وقضاء على التميز الممقوت ٠ وفيه أيضاً تحجيم وتخويف لأصحاب الأهواء والمطامع من أبناء الأمم الأخرى ٠

أما صفة المفرد والتي لم ترد إلا في موضعين فجاءت كل واحدة منهما ضمن سياق يتحدث عن وصف المفرد بتلك الأوصاف، ولا بد من هذا المقدار اليسير المشعر بالمسؤلية الفردية حتى لا يكون هناك اتكال على الآخرين في أداء الفرائض والواجبات ، فلا يعقل ولا يقبل أن يؤمن أحد مكان آخر أو يصلي أحد مكان أحد أو يتحمل أحد تبعه الآخر والموضع الأول :

قوله تعالى (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (البقرة:١٧٧)

الصلاة حاضرة في هذا البر الشامل الجامع ، بل هي توسطت صفات عديدة حيث تقدمتها أوصاف لا بد من أن تتقدمها وتأخرت عنها صفات لا بد أن تتأخر عنها، فهي تحتاج إلى غيرها كما أن غيرها يحتاج إليها ، وهذا ملاحظ كثيراً في الآيات السابقة وفي آيات ستأتي ٠

بدأت الآية الكريمة بالبر وهو وصف جامع لجميع الخيرات وتعداد تلك الأوصاف عقب ذكره دليل على تفسيره وبيانه ، ولكن قبل إثبات الوصف الجامع نرى الآية تنفيه أولاً ثم تثبته ، وهذا دليل على أن تجنب الرذائل مقدم على جلب المنافع ، أو التخلية مقدمة على التحلية ، لقد بدأت بنفي البر عن الاهتمام بالمظاهر والأشكال دون الجواهر والحقائق ٠

[أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب] هنا الخطاب لأهل الكتاب ، لأن اليهود تصلي قبل المغرب إلى بيت المقدس ، والنصارى قبل المشرق ٠ وذلك أنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى الكعبة ، وزعم

كل واحد من الفريقين أن البر التوجه إلى قبلته ، فرد عليهم ، وقيل : ليس البر فيما أنتم عليه فإنه منسوخ خارج من البر ، ولكن البر ما نبينه ، وقيل : كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة ، فقبل ليس البر العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر أمر القبلة ، ولكن البر الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمة بر من آمن بالله وقام بهذه الأعمال ٠٠٠) [١]

وإسناد البر إلى من آمن هو من باب المبالغة ، مثل ما يقال : رجل عدل ، وكما يقولون إنما هي إقبال وإدبار ، وفي الكشاف ، على تأويل حذف المضاف ، أي : بر من آمن ، أو بتأويل البر ، بمعنى : أي : البر ، أو كما قالت : فإنما هي إقبال وإدبار) [٢] ٠

وإسناد البر للبار فيه حث على الانخراط في تلك الأوصاف ومعايشتها والمحافظة عليها ، حتى من يراه يقول : – عن تلك الأوصاف هي جزء منه أو هو جزء منها ، وهذا أوجه من التأويل لانسجامه مع المعنى الذي سيقت الآية له ٠

وبدأ بالإيمان لأنه هو الحامل والدافع للتمسك بما بعده ، فالإيمان بالله يتبعه الإيمان باليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وبقية الأوصاف تتبعه من إنفاق وصلاة وزكاة والوفاء بالعهد والصبر وغير ذلك من الأوصاف التي ذكرت في مقامات أخرى لأسباب داعية ٠

والضمير في قوله [وآتى المال على حبه] يعود على المال أي حب المال لأنه أدعى إلى مدافعة النفس والتغلب عليها وفيه تكثير للأجر وليس معنى هذا أنه إن لم يكن محباً للمال لا ينفقه ، أولا أجر له عليه وإنما آتى بما هو أشد على النفس ، وإلا فمن باب أولى إن كان غير محب له ٠

وبدأ بالقرابة لأن بهم تكون النصرة – فالغنم بالفرم – ولأنه مما يؤلف القلوب ويجتث الأضغان والأحقاد من جذورها، ومعظم تقطع الأرحام ناشئ عن عدم الإنفاق والعطاء ٠

وفي الآية الكريمة ورد ذكر إيتاء المال أولاً ، ثم بعده ذكر الزكاة ، قال صاحب الكشاف « فإن قلت ذكر إيتاء المال في هذه الوجوه ثم قفاه بإيتاء الزكاة فهل دل ذلك على أن في المال حقاً سوى الزكاة ؟ قلت : يحتمل ذلك ٠ وعن الشعبي: أن في المال حقاً سوى الزكاة ، وتلا هذه الآية ، ويحتمل أن يكون تلك مصارف الزكاة ، أو يكون حثاً على تواصل الصدقات والمبادرة » [٣] ٠

ثم عطف عليه الوفاء بالعهد وفيه امتداح لأهله وثناء عليهم (وفيه تنبيه على وجوب الاحتياط عند بذل العهد بحيث لا يعاهد حتى يتحقق أنه يستطيع الوفاء ، كأنه يقول : فإن علموا ألا يفوا فلا يعاهدوا – وعطف [الموفون] على [من آمن بالله] وغير أسلوب

---

١ ـ الكشاف جـ ١ ص ٣٣٠ .
٢ ـ الكشاف جـ ١ ص ٣٣٠ .
٣ ـ الكشاف جـ ١ ص ٣٣٠ .

الوصف فلم يقل ومن أوفى بعهده للدلالة على مغايرة الوصفين بأن الأول من علائق حق الله – تعالى – وأصول الدين ، والثاني من حقوق العباد)[١] ٠

[والصابرين] نجد هذا الوصف هو الوحيد الذي خالف في الإعراب لأنه لو جاء موافقاً لسابقه لجاء مرفوعاً ، فهل لهذا من سر بلاغي؟ نعم (وقد حصل بنصب [الصابرين] هنا فائدتان : إحداهما عامة في كل قطع من النعوت ، فقد نقل عن أبي علي الفارسي : أنه إذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن يخالف إعرابها ، ولا تجعل كلها جارية على موصوفها ،لأن هذا من مواضع الإطناب فإذا خولف إعراب الأوصاف كان المقصود أكمل لأن الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنه أنواع من الكلام ، وضروب من البيان ، ٠٠ الفائدة الثانية أن في نصب [الصابرين] بتقدير أخص أو أمدح ، تنبيها على خصيصة الصابرين ومغرية بصفتهم التي هي الصبر)[٢] ٠

فلله هذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم ، وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال ٠ فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفردية ، لأنهما ينبثق عنهما سائر الحليات المأمور بها ، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها ، والمواساة تقوي عنها والاخوة والاتحاد ، وتسدد مصالح للأمة كثيرة ، وبذل المال في الرقاب يعزز جانب الحرية المطلوبة للشارع حتى يصير الناس كلهم أحراراً ، والوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس ، وفضيلة اجتماعية ، وهي ثقة الناس بعضهم بعض ، والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة ولذلك قال – تعالى – هنا : [أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون] فحصر فيهم الصدق والتقوى حصراً ادعائياً للمبالغة ، ودلت على أن المسلمين قد تحقق فيهم معنى البر ، وفيه تعريض بأن أهل الكتاب لم يتحقق فيهم ، لأنهم لم يؤمنوا ببعض الملائكة وبعض النبيين ولأنهم حرموا كثيراً من الناس حقوقهم ، ولم يفوا بالعهد ولم يصبروا ٠ وفيها أيضاً تعريض بالمشركين إذ لم يؤمنوا باليوم الآخر والنبيين والكتاب ، وسلبوا اليتامى أموالهم ، ولم يقيموا الصلاة ، ولم يؤتوا الزكاة[٣] ٠

وختمت تلك الأوصاف بهذا الحكم المبهج المفرح وهو الصدق والتقوى ، واسم الإشارة [أولئك] الخاص بالبعيد للإشارة إلى بعد وارتفاع منزلتهم ، وفيه إيجاز شديد إذ لو أعاد هذا الحكم مع كل وصف لطال الكلام ، وأعاد اسم الإشارة مرة ثانية ليؤكد الحكم الثاني ، وليدلل على أنه حكم مستقل عن سابقة ، ولا يغني أحدهما عن الآخر ، وكذلك ضمير الفصل الدال على التوكيد والحصر ، وكل هذه التوكيدات التي زخرت بها الخاتمة من شأنها تشجع على المحافظة على تلك الأوصاف والاستمرار عليها ٠

---

١ - التحرير والتنوير جـ٢ ص١٣١
٢ - انظر التحرير والتنوير جـ٢ ص١٣٣
٣ - التحرير التنوير جـ٢ ص١٣٢

أين جزاء أصحاب تلك الصفات ؟ ومن بينهم من أقام الصلاة كما عودتنا الآيات السابقة ، الجواب ، أن هذا أبلغ من ذكر الجزاء لأنهم بذلك حصلوا على كل جزاء مذكور لأهل الصدق وأهل التقوى في الكتاب العزيز أو السنة النبوية ، والدليل على أبلغية ذلك أنه لو ذكر جزاء واحداً أو جزائين فإنه يفهم منه لأجزاء غير المذكور ، أما السكوت عن الجزاء فإنه يفهم منه دخولهم في كل جزاء ذكر ٠ فسبحان من هذا كلامه ٠

وقوله تعالى : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) (التوبة:١٨)

هذه الآية بدأت بهذا الاستئناف البياني حيث الآية التي وردت قبل هذه ترتب عليها سؤال [ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله] التوبة [١٧] والسؤال هو من هم الأحقاءُ بعمارة المساجد ، فجاءت هذه الجملة في أول الآية لتكون جواباً عن ذلك السؤال ٠

وهذا الاستئناف البياني المفتتح بأسلوب القصر يشتمل على عدة أسرار منها التعريض بفئات أخرى لم يعمروا مساجد الله ، وهم غير المشركين المصرح بهم عن عدم عمارة المساجد ، فاليهود والنصارى آمنوا بالله واليوم الآخر لكنهم لم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة[١] ٠

وفيه إيجاز بديع حيث يشمل كل من حرص على عمارة المساجد في كل عصر ومصر ، وفيه ثناء عليهم ومدح لهم، وذم وتقبيح لغيرهم ، والفعل المضارع (يعمر) يفيد عدم انقطاعهم عن هذا الوصف الحميد ويفهم ذم من يفعل ذلك ثم ينقطع عنه لمشاغل النفس وشهواتها ٠

ولم يذكر القرآن نوعاً معيناً من أنواع العمارة ليشمل كل ما يحمله هذا اللفظ مما ذكره المفسرون وغيرهم « ويتناول عمارتها ورم ما تهدم منها ، وتنظيفها ، وتنويرها ، وتعظيمها واعتبارها للعبادة والذكر ، ومن الذكر درس العلم ، بل هو أجله ، وصونها عما لم تبن له من الخوض في أحوال الدنيا وفي الحديث : (إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان »[٢] ٠

وقال الرازي [إنما] تفيد الحصر وفيه تنبيه على أن المسجد يجب صونه عن غير العبادة فيدخل فيه فضول الحديث ، وإصلاح مهمات الدنيا ، وعن النبي – صلى الله عليه وسلم – يأتي في آخر الزمان أناس من أمتي يأتون المساجد يعقدون فيه حلقاً لذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة) وفي الحديث (الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش) قال – عليه الصلاة والسلام – قال الله تعالى – إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زواري فيه عمارها طوبى لعبد تطهر في بيته فحق على

---

١ - انظر التحرير والتنوير جـ١٠ ص١٤١

٢ - البحر المحيط جـ ٥ ص ٣٨٧٥ -- محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي – ولادة المؤلف – ٦٥٤-ه – وفاة المؤلف – ٧٥٤ –ه دار النشر المكتبة التجارية مصطفي أحمد الباز

المزور أن يكرم زائره)وعنه – عليه الصلاة والسلام – من ألف المسجد ألفه الله – تعالى) ٠٠٠ وعن النبي – صلى الله عليه وسلم – (من أسرج في مسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام في المسجد ضوؤه) وهذه الأحاديث نقلها صاحب الكشاف) [١] ٠

وفي إضافة المساجد إلى لفظ الجلالة تعظيم لها وتكريم وتشريف لعمارها ، وفيه حث على عمارتها وترغيب فيه ، وهذا لا يتأتى إلا ممن اتصف بالصفات الأربع التي ذكرت في الآية ٠

وأول صفة بدأت الآية بها هي صفة الإيمان بالله واليوم الآخر ، فهل توجد علاقة بين عمارة المساجد والإيمان بالله واليوم الآخر؟ نعم وقد أجاب الرازي مبيناً هذه العلاقة بقوله : (لا بد من الإيمان بالله لأن المسجد عبارة عن الموضع الذي يعبد الله فيه ، فما لم يكن مؤمناً بالله ، امتنع أن يبني موضعاً يعبد الله فيه ، وإنما قلنا إنه لا بد أن يكون مؤمناً بالله واليوم الآخر ، لأن الاشتغال بعبادة الله – تعالى – إنما تفيد في القيامة ، فمن أنكر القيامة ، لم يعبد الله ، ومن لم يعبد الله لم يبني بناء لعبادة الله – تعالى - [٢]

والإيمان بالرسول – صلى الله عليه وسلم – هو وصف للذين يعمرون المساجد ولكن الآية الكريمة اكتفت بوصف الإيمان بالله ، وذلك لأن الإيمان يلزم منه الإيمان بالرسول - صلى الله عليه وسلم – وهل يعقل أن مؤمناً بالله يخالف أوامره ؟ وهو سبحانه الذي أمر المؤمنين بالإيمان بالرسول - صلى الله عليه وسلم –

وقيل أنه لم يذكر – عليه الصلاة والسلام – لأن المراد (بمن) هو وأصحابه أي : المستحق لعمارة المساجد من هذه صفته كائناً من كان ، وليس الكلام في إثبات نبوته – عليه الصلاة والسلام – والإيمان به بل فيه نفسه وعمارته المسجد واستحقاقه له ،ا فالآية على حد قوله : [إني رسول الله إليكم جميعاً] إلى قوله تعالى [فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته] [٣] ٠

وبعد ما ذكرت الآية وصف الإيمان بالله واليوم الآخر ثنت بإقامة الصلاة ، ولا ريب أن علاقة إقامة الصلاة بعمارة المساجد علاقة قوية وواضحة ، فلا تتصور المساجد بدون صلاة ، والمعنى اللغوي يؤكد ذلك ، فالمساجد هي أماكن السجود الذي هو من أهم وأبرز أركانها ٠

والمقصود الأعظم من بناء المساجد إقامة الصلوات، فالإنسان ما لم يكن مقراً بوجوب الصلوات امتنع أن يقوم ببناء المساجد ٠٠واعلم أن اعتبار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في عمارة المساجد كأنه يدل على أن المراد من عمارة المسجد الحضور فيها ، وذلك لأن الإنسان إذا كان مقيماً للصلاة فإنه يحضر في المسجد فتحصل عمارة المسجد به ، وإذا كان مؤتياً للزكاة فإنه يحضر في المسجد طوائف الفقراء والمساكين لطلب أخذ الزكاة فتحصل عمارة المسجد به

---

١ - مفاتيح الغيب جـ١٦ ص١٢
٢ - مفاتيح الغيب جـ١٦ ص١٢
٣ - روح المعاني جـ١٠ ص٦٥

، وأما إذا حملنا العمارة على مصالح البناء فإيتاء الزكاة معتبر من هذا الباب أيضاً لأن إيتاء الزكاة واجب وبناء المسجد نافلة ، والإنسان ما لم يفرغ عن الواجب لا يشتغل بالنافلة، والظاهر أن الإنسان ما لم يكن مؤدياً للزكاة لم يشتغل ببناء المساجد[١] وخاصة من الظلمة الذين يجتهدون في خراب المساجد وتعطيلها وإيذاء عمارها كما صرحت به الآية الكريـــمـــة [ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم] البقرة : ١١٤

عمارة المساجد أمر محفوف بالمكاره والمخاوف لذلك جعل من أوصاف عمارها عدم خشية غير الله ، وهذا من شأنه يحمل المسلم على الدوام والاستمرار على ذلك مهما كانت الموانع أو العوائق والصفة التي جاءت مخالفة للأوصاف المتقدمة حيث جاءت بالفعل الماضي الدالة صيغته على المضي مباشرة ، أما الخشية فيعبر عنها بالفعل المضارع المجزوم بـ[لم] وهذا فيه إشارة تحقق ذلك الوصف واستمرارهم عليه ٠

وقصر خشيتهم على التعلق بجانب الله – تعالى – بصيغة القصر ليس المراد منه أنهم لا يخافون شيئاً غير الله فإنهم قد يخافون الأسد ويخافون العدو ، ولكن معناه إذا تردد « الحال بين خشيتهم لله وخشيتهم غيره قدموا خشية الله على خشية غيره كقوله آنفاً [أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه] التوبة : ١٣ فالقصر إضافي باعتبار خشيتين ، وهذا من خصائص المؤمنين : فأما المشركون فهم يخشون شركاءهم وينتهكون حرمات الله لإرضاء شركائهم ، وأما أهل الكتاب فيخشون الناس ويعصون بتحريف كلمه ومجاراة أهواء العامة ، وقد ذكرهم الله بقوله : [فلا تخشوا الناس واخشون] المائدة : ٤٤ »[٢]

وقيل إن « أبا بكر – رضي الله عنه – بنى في أول الإسلام على باب داره مسجداً وكان يصلي فيه ، ويقرأ القرآن والكفار يؤذونه بسببه ، فيحتمل أن يكون المراد هو تلك الحالة ، يعني : وإن خاف الناس من بناء المسجد إلا أنه لا يلتفت إليهم ولا يخشاهم ولكنه يبني المسجد خوفاً من الله – تعالى - »[٣]

وذيلت الآية الكريمة بتذييل هو غاية في الدقة والإحكام حيث صدر بـ(عسى) حتى تقتلع كل غرور أو رياء ، وحتى لا ينسبوا ذلك لأنفسهم ، أو يتكلوا ، واسم الإشارة الدال على أصحاب تلك الصفات هم جديرون بما سيذكر بعده من الاهتداء ٠

وفي البحر المحيط « وعسى من الله – تعالى – واجب حيثما وقعت في القرآن الكريم ، وفي ذلك قطع لأطماع المشركين أن يكونوا مهتدين إذا من جمع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من ترجى له الهداية ، فكيف بمن هو عار منها؟ : وفي ذلك ترجيح الخشية على الرجاء ، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة ، فربما دخلها بعض المكدرات وصاحبها لا يشعر بها ٠ وقال تعالى : [أن يكونوا من المهتدين] أي من الذين سبقت لهم الهداية ، ولم يأت التركيب – أن يكونوا مهتدين – بل جعلوا بعضاً من المهتدين ، وكونهم منهم أقل في التعظيم من أن يجرد لهم الحكم بالهداية »[٤] ٠

---

١ - مفاتيح الغيب ج ١٦ ص ١٢
٢ - التحرير والتنوير جـ١٠ ص١٤٢
٣ - مفاتيح الغيب ج١٦ص١٢
٤ - البحر المحيط جـ ٥ ص ٣٨٧

فأقمت لهم الصلاة
صلاة الخوف

قوله تعالى (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً) (النساء:١٠٢)

هذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أهمية الصلاة ومدى العناية والحرص على أدائها في أوقاتها ، حتى في أحلك الظروف وأضيق الحدود ، فليس هناك شيء فيه هم أكثر من هم الحرب ، ولا أضيق من وقته ، ورغم كل ذلك يعلمنا التشريع الحكيم كيفيتها وقت الخوف ٠

والمسلم في حال الحرب في أمس الحاجة إلى أن تقوى صلته بربه ، والصلاة هي من أيسر السبل التي تحقق هذا المطلب ، فالمحافظة على الصلوات يعني عدم نسيان العبد لربه ، وذلك من أهم أسباب النصر ، وكذلك أخذ الحيطة و الحذر حتى لا يعتقد البعض أن كل الوقت يجب إن ينصرف إلى الصلاة وليكن ما يكن ، إذاً لا بد من هذا التشريع الدقيق الذي ينظم حياة المسلم في وقت السلم والحرب ٠

وبدأت الآية الكريمة بأمر محقق حتى يكون ادعى إلى الاهتمام والتنبه ، والخطاب موجه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – والتعبير بـ(فيهم) أبلغ مما لو قال – معهم – لأن فيه إشارة إلى تغلغل أخلاقه وتوجيهاته في نفوسهم وسربان ذلك في عواطفهم وأهوائهم ٠

وفي الآية إيجاز بديع فإنه لما قال : [فلتقم طائفة منهم معك] علم أن ثمة طائفة أخرى ، فالضمير في قوله تعالى : [فإذا سجدوا] للطائفة التي مع النبي – صلى الله عليه وسلم – لأن المعية معية الصلاة ، وقد قال : [فإذا سجدوا] وضمير قوله : [فليكونوا] للطائفة الأخرى المفهومة من المقابلة ، لظهور أن الجواب وهو [فليكونوا من ورائكم] متعين لفعل الطائفة المواجهة للعدو [١] ٠

والمراد بإقامة الصلاة إقامة حدودها وأركانها ، وعبر بالقيام لأنه من أهم أركانها وهو أول مظهر من مظاهر الصلاة ولا تكون تكبيرة الإحرام إلا به ، وقيل : فلتقم بأمر صلاتها حتى تقع على وفق صلاتك من قام بالأمر اهتم به[٢]

والظاهر أن الضمير في : (وليأخذوا أسلحتهم) عائد على طائفة لقربها من الضمير ، ولكونها لها فيما بعدها في قوله تعالى : (فإذا سجدوا) ٠ وقيل : إن الضمير عائد على غيرهم ، وهي للجميع ، لأنه أهيب للعدو : [١]

---

١ - التحرير والتنوير جـ٥ ص١٨٥-١٨٦
٢ - البحر المحيط جـ ٤ ص ٤٩.

وعبر بالسجود عن الصلاة ، في قوله تعالى : (فإذا سجدوا] لأنه من أهم مظاهرها فقد يكون القائم غير مصلي وكذلك الراكع ، أو لأنه من أهم ما يعرف به العدو ويتحقق ٠

وكون إحدى الطائفتين مع النبي – صلى الله عليه وسلم – والأخرى في حراستهم ومراقبة العدو هذا لا يعفي الطائفة المصلية من أخذ الحيطة والحذر وعدم الاتكال بالكلية على الطائفة الحارسة المترقبة لذلـــــك قال تعـــالى : (وليأخذوا حذرهم) ٠

ودلت الآية على وجوب الحذر عن العدو ، فيدل على وجوب الحذر عن جميع المصادر المظنونة ، وبهذا الطريق كان الإقدام على العلاج بالدواء ، والعلاج باليد ، والاحتراز عن الوباء ، وعن الجلوس تحت الجدار المائل واجباً ، و الله أعلم ٠) [٢]

(وقوله : [وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم] استعمل الأخذ في حقيقته ومجازه : لأن أخذ الحذر مجاز ، إذ حقيقة الأخذ التناول وهو مجاز في التلبس بالشئ والثبات عليه ٠ وأخذ الأسلحة حقيقة ، ونظيره قوله تعالى : [والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم] (الحشر : ٩) فإن تبوأ الإيمان الدخول فيه ، والاتصاف به بعد الخروج من الكفر ، وجاء بصيغة الأمر دون أن يقول : ولا جناح عليكم أن تأخذوا أسلحتكم ، لأن أخذ السلاح فيه مصلحة شرعية) [٣]

وهنا سؤال وهو لماذا ذكر أولاً أخذ الأسلحة وثانياً ذكر أخذ الحذر والأسلحة ؟ وقد أجاب صاحب البحر بقوله « فإن قيل : لم ذكر في الآية الأولى (أسلحتهم) فقط ، وذكر في هذه الآية [حذرهم وأسلحتهم] قلنا : لأن في أول الصلاة قلما يتنبه العدو لكون المسلمين في الصلاة ، بل يظنون كونهم قائمين لأجل المحاربة ، أما في الركعة الثانية فقد ظهر للكفار كونهم في الصلاة ، فهاهنا ينتهزون الفرصة في الهجوم عليهم ، فلا جرم خص الله – تعالى – في هذا الموضع بزيادة تحذير فقال :[وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم]»[٤]

وذكر القرآن حرص أهل الكفر على غفلة المؤمنين وعدم تنبههم ، والتعبير بالود يؤكد شدة الحرص وترقب ذلك وتتبعه لأنهم يظنون أن أمور الدين تشغلهم عن عدوهم (وفي هذا الإخبار تنبيه وتحذير من الغفلة ، وأفرد المسألة لأنها أبلغ في الإيصال ٠) [٥]

وهناك أسباب يرخص من أجلها في حمل الأسلحة مثل تبلل الأرض بالمطر ، أو المرض الذي يتنافى معه حمل السلاح ، ولكن مع وجود المبيح لترك الأسلحة إلا أنه لا بد من أخذ الحذر ٠

وتكرير الأمر بأخذ الحذر في الصلاة ، وفي هاتين الحالتين مما يدل على توكيد التأهب ، والاحتراز من العدو ، فإن الجيش كثيراً ما يصاب من التفريط في الحذر ٠ وقال الضحاك : في قوله تعالى : [وخذوا حذركم] أي تقلدوا سيوفكم فإن ذلك حذر الغزاة ٠٠٠

---

١ - انظر البحر المحيط ج ٤-ص ٤٩.
٢ - مفاتيح الغيب جـ١١ ص ٢٠٧
٣ - التحرير والتنوير جـ ٥ ص ١٨٦ – ١٨٧.
٤ - مفاتيح الغيب جـ ١١ ص ٢٠٦
٥ - البحر المحيط جـ ٤ ص ٥٢.

وقال ابن عباس : نزلت بسبب عبد الرحمن بن عوف ، كان مريضاً فوضع سلاحه فعنفه بعض الناس)[١]

ومع هذا التحذير الشديد المكرر بمراقبة العدو وأخذ الحذر نجد النظم الكريم يأتي بما يطمئن القلوب ويهدئ النفوس وبزرع الثقة في نفوس المؤمنين قال تعالى [إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً] ٠

فإن قلت : كيف طابق الأمر بالحذر قوله تعالى [إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً] قلت : الأمر بالحذر من العدو يوهم توقع غلبته واعتزازه ، فنفى عنهم ذلك الإيهام بإخبارهم أن الله يهين عدوهم ويخذله وينصرهم عليه[٢] ٠

أقمتم الصلاة

قوله تعالى (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) (المائدة:١٢)

سجل القرآن هنا موقفاً من مواقف بني إسرائيل حتى تكرر عليهم الحجة ويقطع عنهم اختلاق الأعذار ، ويجعلهم عظة وعبرة لأمة محمد – صلى الله عليه وسلم – حتى لا يترسموا خطاهم في نقض المواثيق ، ومخالفة الشرع ، وتنكب الصراط المستقيم ٠

والجملة الفعلية التي بدأت الآية بها قد أكدت بـ(قد) و (واللام) وليس ثمة منكر ولا منزل منزلته ، فالغرض هو الاهتمام بشأن المؤكد ، وليكون أبلغ في تشبه الموعوظ وادعى إلى التمسك بالموعظة والعمل بها ٠

وفي هذه الآية قد أسند الأخذ إلى لفظ الجلالة ، ولم يسنده إلى ضميره – تعالى – كما في بعض المواطن الأخرى والغرض من ذلك هو (تربية المهابة ، وتفخيم الميثاق ، وتهويل الخطب في نقضه ، مع ما فيه من رعايـــة حـــق (الاستئناف المستدعى للانقطاع عما قبله ٠)[٣]

وذكر بني إسرائيل باسمهم الذي نعتوا به حتى يكون الزم للحجة وأبلغ في الافتضاح ، وأقوى في الموعظة ٠

والبعث أصله التوجه والإرسال ، ويطلق على الإقامة والإنهاض ، كقوله : [من بعثنا من مرقدنا] يس : ٥٢ ، وكقوله : [فهذا يوم البعث] الروم :٥٦ ٠ ثم شاع هذا المجاز حتى بنى عليه مجازاً آخر بإطلاقه على الإقامة المجازية [إذ بعث فيهم رسولاً من

---

١ - البحر المحيط جـ ٤ ص ٥٢ بتصرف
٢ - الكشاف جـ ١ ص ٥٦٠ .
٣ - تفسير أبي السعود جـ٣ ص١٥

أنفسهم] أل عمران : ١٦٤ ، ثم أطلق على إثارة الأشياء ، وإنشاء الخواطر في النفس ٠ قال متمم بني نويرة :

فقلت لهم إن الأسى يتبع الأسى

أي أن الحزن يثير حزناً آخر ، وهو هنا يحتمل المعنى الأول المعنى الثالث [١] ٠

والالتفات في قوله تعالى [وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً] الغرض لعام منه هو إيقاظ للإصغاء ، وتجديد للنشاط وهذا بعكس ما لو جاء الكلام على وتيرة واحدة ، أما الغرض الخاص فهو (الجري على سنن الكبرياء ، أو لأن البعث كان بواسطة موسى – عليه السلام -) [٢] ٠

وقد تقدم الجار والمجرور وهو قوله [منهم] على المفعول الصريح وهو قوله (اثني عشر نقيباً) والغرض منه هو الاهتمام بشأن المقدم ، والتشويق إلى المؤخر ٠

والنقيب فعيل ، والفعيل يحتمل الفاعل والمفعول ، فإن كان بمعنى الفاعل فهو الناقب عن أحوال القوم المفتش عنها ، وقال أبو مسلم : النقيب هنا فعيل بمعنى مفعول يعني اختارهم على علم بهم ، ونظيره أنه يقال : للمضروب ضريب ، وللمقتول قتيل وقال الأصم : هم المنظور إليهم ، والمسند إليهم أمور القوم وتدبير مصالحهم [٣] ٠

والعلة في اختيار هذا العدد أنهم كانوا اثني عشر سبطاً ، فاختار من كل سبط نقيباً ينوب عنهم في كل شئونهم ٠

وينتقل النظم الكريم نقلة سريعة تتناسب مع حال بني إسرائيل وتقلبهم وعدم استقرارهم على حال ، فبعد أن جعل الله الأخذ للميثاق من قبله هو – تعالى – حتى يكون موضع اهتمام وعناية ، ثم انتقل إلى ضمير الجمع وبعثنا لأن ذلك محتاج للعظمة والقدرة ثم الانتقال مرة أخرى إلى لفظ الجلالة ، حتى تطمئن نفوسهم إلى هذه المعية ، وذكر الألوهية دون الربوبية لأن المقام يحتاج إلى قدرة وعظمة ، ولفظ المعية من شأنه أن يحملهم على الاتباع ، والانصياع ، ولكن كيف يكون منهم ذلك وقد اعتادوا المراوغة والمخادعة وعدم الالتزام ، وأيضاً التأكيد بـ(إن) يؤكد هذه المعية ، وترك ضمير الغائب والانتقال إلى التكلم كل ذلك يقطع الأوهام والشكوك ، ولكن هذا مع أهل العقول السليمة والعامرة بالإيمان ٠

(وقال الله) أي لبني إسرائيل فقط إذ هم المحتاجون إلى ما ذكر من الترغيب والترهيب ، كما ينبئ عنه الالتفات مع ما فيه من تربية المهابة ، وتأكيده ، وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد ٠ (إني معكم) بالعلم والقدرة والنصرة / لا بالنصرة فقط فإن تنبيههم على علمه – تعالى – بكل ما يأتون وما يذرون ، وعلى كونهم تحت قدرته وملكوته مما يحملهم على الجد في الامتثال بما أمروا به ، والانتهاء عما نهوا عنه[٤] ٠

---

١ - التحبير والتنوير جـ ٦ ص ١٣٩-١٤٠

٢ تفسير أبي السعود جـ ٣ ص ١٥

٣ - مفاتيح الغيب بتصرف جـ١١ ص٣٢٢

٤ - تفسير أبي السعود جـ٣ ص ١٥

ولم يقل الحق إني معهم ، حتى يشعرهم الخطاب بالمواجهة وليكون ألزم للحجة وأقطع للتعليل وأدعى إلى الاهتمام بما سيأتي بعده من التشريعات ، وجاءت المعية عامة حتى تشمل كل ما يحتاجونه وكل ما يعلمه الله من الخير لهم من أمور معاشهم ومعادهم ٠

وهذا يعد مقدمة كلية لما سيذكر بعدها من الشرط والجزاء ، والمفسرون يقولون إن الكلام تم عند قوله [إني معكم] وقوله [لإن أقمتم الصلاة] الخ كلام مستأنف فيه من الأوامر التي جاءت بطريقة الشرط وما ترتب عليه من الجزاء ٠

ولقد تضمنت الشروط خمسة أشياء وهي : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإيمان بالرسل ، ونصرتهم ونجد هنا أن إقامة الصلاة تقدمت على الأمور الأربعة وهذا يدل على عظم قدرها وعلو منزلتها ، وبيان أهميتها ، فهي تحمل العبد على قتل الشح في نفسه ويترتب عليه إخراج زكاة الفرض فإن كثر تأثير الصلاة على تهذيب نفسه انتقل من زكاة الفرض إلى البذل والعطاء في وجوه الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وكذلك إقامة الصلاة على الإيمان بسائر الرسل ، لأنها هي المهيئة لذلك والحاملة عليه ، إذ الإيمان بالنبي المرسل وترك ما عداه يدل على أن نفوسهم لم تهذب بعد والإيمان لم يتمكن من قلوبهم فضل تمكن ، والصلاة إذا ما أقيمت على الوجه الصحيح مستوفية لشرائطها وأركانها ، كانت كفيلة بالقضاء على الأنانية والعصبية المتمثلة في الإيمان ببعض الرسل وترك البعض الآخر ، وهذا بلا ريب يضيع أعمالهم ويبطل إيمانهم ، ويكون سبباً في عدم تكفير السيئات وعدم دخول الجنة٠

ولأهمية ما تضمنه الشرط نجد أن القرآن بدأه بهذه القوة الشديدة ، فاللام الموطئة للقسم ، وأسلوب الشرط لحمل المخاطبين على الامتثال والإذعان ، ولولا أنهم متقاعسون عن الالتزام بما جاءت به هذه التأكيدات البليغة ، وكذلك يدل على الاعتناء بما تضمنه الشرط من الأمور الخمسة ٠

وجاء الإيمان بالرسل مؤخراً عن إقامة الصلاة (لأن اليهود كانوا مقرين بأنه لابد لحصول النجاة من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، إلا أنهم كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل فذكر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أنه لابد من الإيمان بجميع الرسل ، حتى يحصل المقصود ، وإلا لم يكن لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تأثير في حصول النجاة بدون الإيمان بجميع الرسل[١]

وذكر تأييد الرسل ونصرتهم بعد الإيمان دليل على أن الإيمان وحده غير كاف، ففي استطاعتهم ادعاء الإيمان بالرسل، فجاء الحديث عن النصرة كدليل على كشف زيفهم ، وادعائهم ، فإن لم تكن نصرة فلا إيمان .

وقيد القرض بالحسن حتى يخرج به تلك القروض التي لا يبتغى بها وجه الله ، أو التي يخرجها صاحبها ولا تطيب نفسه بذلك ، بل يفعل بتردد وحساب .

---

(١) - مفاتيح الغيب ج ١١ ص ١٢٣

وهنا نجد أن القرآن عدل عن المصدر ، فلم يقل إقراضاً ، وعبر بالاسم فقال (قرضاً) ومن الجائز أن يكون الدافع لهذا العدول هو إضافة معناً جديداً ، لا يفيده المصدر ، وإنما يستفاد من الاسم ، ولا ريب أن إضافة المعنى الجديد أولى ، وأفضل من التأكيد ، أو المراد به التوسع في الأساليب ، كما قال تعالى (وأنبتناها نباتاً حسناً) ولم يقل إنباتاً

وقوله (لأكفرن) جواب القسم وجواب الشرط محذوف ، وصاحب الكشاف قال : إن الجواب هنا سد مسد جواب الشرط والقسم ، ولم يوافق صاحب البحر الزمخشري فيما ذهب إليه حيث قال « وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه . وقال الزمخشري : وهذا الجواب يعني : (لأكفرن) ساد مسد جواب القسم والشرط جميعاً انتهى . وليس كما ذكره ، لا يسد مسدهما ، بل هو جواب القسم فقط ، وجواب الشرط محذوف كما ذكرنا.»[1]

وأغلب المفسرين جعلوا قوله (إني معكم) تم به الكلام وما بعده مستأنف . لكن صاحب (غرائب التفسير) ذكر قولين « أحدهما : أن جزاء الشرط [إني معكم لئن أقمتم الصلاة] ٠ والثاني : أن جزاء الشرط قوله [لأكفرن عنكم] على تقدير : والله لأكفرن] [2] ٠

وأرى أن الرأي الأول هو الأنسب لأنه يتفق مع بلاغة القرآن ، فمعية الله لهم هي جزء من الجواب الذي اكتمل بتعينه [لأكفرن] إلى آخره ، والنظم ينسجم مع أن الأول والأخير هما الجواب وإنما قدم جزء من الجواب وهو قوله [إني معكم] حتى يكون حافزاً ومشجعاً على الالتزام بما في حيز الشرط – والله اعلم –

والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، فقد سبق قوله تعالى مخاطباً بني إسرائيل في سورة البقرة [وأوفوا بعهدي أوفي بعهدكم] فالأمور الخمسة التي في حيز الشرط هي عهد الله ، وما رتب على ذلك من جزاء هو عهدهم ٠[3]

وجاء دخول الجنة بعد تكفير السيئات من باب تقديم التخلية على التحلية ، وحتى يدخلوا الجنة طاهرين من دنس السيئات وأثر الذنوب ، وحتى يعلموا أن لهم سيئات قد كفرها الله بمنه وفضله ، وإلا لو آخذهم بها لما دخلوا الجنة ٠

ثم ختمت الآية بهذه الخاتمة المحذرة والمنذرة بعد هذا البيان الكافي بان كفرهم بعد هذا هو ضلال بين ما بعده ضلال ٠

ولعل تغيير السبك – حيث لم يقل إن كفرتم عطفاً على الشرطية السابقة لإخراج كفر الكل عن حيز الاحتمال ، وإسقاط من كفر عن رتبة الخطاب ، وليس المراد إحداث الكفر بعد الإيمان ، بل ما يعم الاستمرار عليه أيضاً ، كأنه قيل : فمن اتصف بالكفر بعد ذلك خلا أنه قصد – إيراد ما يدل على الحدوث – ببيان ترقيهم في مراتب الكفر ، فإن

---

(١) البحر المحيط ج ٤ ص٢٠٣

٢ - غرائب التفسير وعجائب التأويل جـ١ ص٣٢٣ تأليف محمود بن حمزة الكرماني تحقيق د/ شمرابن سركال العجلي

٣ - تفسير أبي السعود جـ٣ ص١٦

الاتصاف بشيء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه ، وإن كان استمراراً عليه ، لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث ٠[١]

وقال صاحب غرائب التنزيل – مختصراً هذا المعنى ومضيفاً إليه (فإن قيل : كيف قال : في آخر قوله : تعالى : [ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ٠٠٠] الآية [فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل] مع أن الذين كفروا قبل ذلك أيضاً فقد ضلوا سواء السبيل ؟ بقدر عظم النعمة المكفورة ، فلذلك خصه بالذكر ٠[٢]قلت : نعم ولكن الضلال بعد ما ذكر من النعم أقبح ، لأن قبح الكفر .

ويقيمون الصلاة

هذا هو الفعل المضارع ، والذي عبر القرآن به عن إقامة الصلاة ، والفعل المضارع له خاصيته من إفادة الاستمرار ، وهذا يدل على أن المطلوب من العبد أن يستمر على إقامة الصلاة ، وحتى لا يعتقد أن التعبير بالماضي هو أن يقع منه فيما مضى ، ولا يضيره أن يحافظ على ذلك ، ولكن يبقى السؤال قائماً وهو لماذا يعبر القرآن في بعض آياته بالفعل الماضي وفي بعضها الآخر يعبر بالفعل المضارع ، من الملاحظ أن المقامات التي عبر فيها بالماضي جاء ضمن أوصاف عبر عنها بالماضي ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنه يريد أن يخبر أن ذلك قد حدث منهم بالفعل ، وتلك الأوصاف محققة فيهم ، أو ينبغي أن تكون محققةً فيهم ، أما المقامات التي عر فيها بالمضارع فيفهم منها إضافة الاستمرار المفهوم من المضارعة مع التحقق الذي كان أو ينبغي أن يكون فكلا الفعلين مكمل للآخر ، ومن العجيب الفعل أقاموا ، ورد تسع مرات والفعل يقيمون أيضاً بلغ نفس العدد ليؤكد ذلك ما ذكرته من جحود المذنبين ٠ ومن ذلك

قوله تعالى : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (البقرة:٣)

وفي الآية الكريمة وقع وصف إقامة الصلاة بين وصفين هما الإيمان بالله والإنفاق في وجوه الخير وذلك لأن الصلاة مترتبة على الإيمان ، وإقامتها بدونه لا ثمرة لها ، فيشترط قبل إقامتها الإيمان بالغيب ، الذي يجعل صاحبه يستمر على إقامة الصلاة ، فإن حدث فتور فيه حدث كذلك فيها ، ومن توفر فيه الإيمان بالغيب وحافظ وداوم على إقامة الصلاة كان ذلك سبباً مباشراً في رقة القلب التي يترتب عليها العطاء والبذل وموت الشح والبخل٠

بعد ما ذكر الله – تعالى – أن القرآن هدى للمتقين وعندما يسمع هذا يسأل السائل من هم المتقون الذين ذكر القرآن أن الكتاب هداية لهم ٠ فذكرت الآية بعضاً من أهم أوصافهم ٠

قال أبو السعود [الذين يؤمنون بالغيب] إما موصول بالمتقين ومحله الجر على أنه صفة مقيدة له إن فسر التقوى بترك المعاصي فقط مترتبة عليه ترتيب التحلية على التخلية

---

١ - تفسير أبي السعود جـ٣ ص١٦

٢ - غرائب التنزيل ص٩٦ تأليف الإمام محمد بن أبي بكر الرازى تحقيق عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي – دار عالم الكتب السعودية

، وموضحة إن فسر بما هو المتعارف شرعاً والمتبادر عرفاً ، من فعل الطاعات وترك السيئات معاً لأنها حينئذ تكون تفصيلاً لما انطوى عليه اسم الموصوف إجمالاً ، وذلك لأنها مشتملة على ما هو عماد الأعمال وأساس الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة فإنها أمهات الأعمال النفسانية ، والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر القرب ، الداعية إلى التجنب عن المعاصي غالباً ، ألا نرى إلى قوله تعالى [إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر] وقوله عليه الصلاة والسلام – (الصلاة عماد الدين ، والزكاة قنطرة الإسلام) أو مادحه للموصوفين بالتقوى المفسر بما مر من فعل الطاعات وترك السيئات ٠٠٠٠ أو النصب على المدح بتقدير أعني ، أو الرفع عليه بتقدير (هم) ،وإما مفصول عنه مرفوع بالابتداء خبره الجملة المصدرة باسم الإشارة ٠٠٠ فالوقف على (المتقين) حينئذ وقف تام ، لأنه وقف على مستقل ، ما بعده أيضاً مستقل ، وأما على الوجه الأول فحسن الاستقلال الموقوف عليه ، غير تام لتعلق ما بعده به وتعينه له)[١]

ومن براعة القرآن في هذا المقام المخالفة في الإعراب بين صفات المدح الواردة في الآيتين ، وهو مسلك بليغ حيث فيه تنبيه ولفت للعقل وتجدد للنشاط ، « قال أبو علي : إذا ذكرت صفات المدح وخولف في بعضها الإعراب فقد خولف للافتنان ، أي : للتفنن الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجد من الإصغاء ، فإن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سننه المسلوك ينبي عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ، ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب ٠»[٢]

وجاء باسم الموصول [الذين] بدلاً من [أل] حتى يعدل اسم الفاعل إلى الفعل المضارع ليفيد حدوث وتجدد أيمانهم بالغيب ، وإقامة الصلاة ، والاتفاق ، ولا ريب أن هذا أبلغ من امتداحهم ما لو أتي باسم الفاعل ، قال صاحب البحر (وجعل صلات الذين أفعالاً مضارعة ، ولم يجعل الموصول [أل] فيصله باسم الفاعل لأن المضارع فيما ذكر البيانيون مشعر بالتجدد والحدوث ، بخلاف اسم الفاعل ، لأنه عندهم مشعر بالثبوت ، والأمدح في صفة المتقين تجدد الأوصاف)[٣]

وقيل المراد بالصلاة ـ الصلاة أم النوافل قيل (الصلوات الخمس ٠ قاله مقاتل : ، أو الفرائض والنوافل قاله الجمهور)[٤] وأرجحه لأنه الأنسب مع امتداحهم ٠

وقوله [مما رزقناهم ينفقون] فيه عدة أسئلة وهي لماذا أسند الضمير في رزقناهم إلى الله ؟، وما المراد بـ [من] ؟ ولماذا آخر الفعل خلافاً لسابقيه ؟ ، قد أجاب صاحب الكشاف عن كل ذلك بقوله : « وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله ، ويسمى رزقاً منه ٠وأدخل من صيانة لهم ،وكفاً عن الإسراف

---

١ ـ تفسير أبي السعود جـ١ ص٢٩
٢ ـ تفسير أبي السعود جـ١ ص٣
٢ـ البحر المحيط جـ١ ص٦٩ المكتبة التجارية مكة المكرمة .
٤ ـ البحر المحيط جـ١ ص٦٨

والتبذير المنهي عنه ٠وقدم مفعول الفعل دلاله على كونه أهم ، كأنه قال : ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به ٠»[١]

وصاحب مناهل العرفان يرد كلام الزمخشري في كون الرزق الحلال فقط من الله والحرام من العبد فبعد ما ساق كلام الزمخشري في الشان قال : « وهذا منه إيماء إلى أن الرزق الحلال من الله ، وأن الرزق الحرام من العبد ويرد عليه أهل السنة بقوله سبحانه : (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) (فاطر:٣) فالله هو الخالق الرازق لا غيره ، سواء أكان الرزق حلالاً أم حراماً »[٢]

وأما تقديم المفعول للاهتمام فصاحب البرهان رجح كلام أبي البقاء القائل بأن التقديم لمراعاة رؤوس الآتي حيث قال أخر الفعل عن المفعول فيها ، وقدمه فيما قبله في قوله [يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة] لتوافق رؤوس الآي ، قاله أبو البقاء وهو أجدد من قول الزمخشري : قدم المفعول للاختصاص ٠) [٣]

والأوجه أن يقال أن التقديم للأمرين معاً أي للاهتمام ورعاية الفاصلة وبذلك ثم الجمع بين كلام الزمخشري وكلام الزركشي ٠

ولا يضر كتاب الله – تبارك وتعالى – أن يكون أحد أسباب ذلك السياق مراعاة الفواصل ، إذ لوقع الفواصل على الآذان تأثير لا ينكر ولا يدفع ، أما أن يكون هذا السياق مراعاة الفاصلة فقط ، فهذا ما يرد على هذه القضية ويوهنها ٠

ونقل الزركشي عن الزمخشري في كشافة القديم (أنه لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها ، إلا مع بقاء المعاني على سدادها ، على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه ، كما لا يحسن تخير الألفاظ المؤنقة في السمع السلسة على اللسان إلا مع مجيئها منقادة للمعاني الصحيحة المنتظمة ، أما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه على بال ، فلبس من البلاغة في فتيل ، أو نقير) ولو جمع الزمخشري – رحمه الله تعالى – إلى جانب إرادة الاختصاص إرادة مراعاة الفواصل في هذا المكان لكان جمعاً حسناً ، ولا ننفى المحظور بالقول برعاية الفاصلة فقط ، أو بإهمال شأن الفاصلة تماماً ، إذ أن كلاهما مراد [٤]

ووصف إقامة الصلاة الذي جاء في المرتبة الثانية بعد الإيمان بالغيب من صفات المتقين له أثر كبير في الحكم على أصحاب تلك الأوصاف بالهدى والفلاح الذي ختمت به

---

١ - الكشاف جـ ١ ص ١٣٢ .

٢ - مناهل العرفان جـ٢ ص٥١ --:: محمد عبدالعظيم الزرقاني-- دار النشر :: دار الفكر -- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٩٩٦-- رقم الطبعة :: الأولى--اسم المحقق :: مكتب البحوث والدراسات-

٦- البرهان في علوم القرآن جـ١ ص٦٣٦ --:: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله-- -- ولادة المؤلف :: ٧٤٥-- وفاة المؤلف :: ٧٩٤-- دار النشر :: دار المعرفة-- -- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٣٩١-- -- عدد الأجزاء :: ٤اسم المحقق :: محمد أبو الفضل إبراهيم

٤ - انظر إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء ص٥٨٠-٥٨١ د/ محمد موسى الشريف – دار الأندلس الخضراء جدة

تلك الأوصاف [أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون] واسم الإشارة يدل على الإيجاز أي : أن أصحاب تلك الصفات هم جديرون بما سيذكر بعد اسم الإشارة من جزاء

وقوله تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة:٧١)

في الآية الكريمة بدأ الله – تعالى – بما يشيع الألفة بين أفراد المجتمع المسلم ، من تواصل وتكافل وتواد، وولاية المؤمنين بعضهم لبعض هي من أهم مظاهر التواصل ، وكذلك منه عدم عزلة المؤمن عن إخوانه فهو يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم ٠

وبدأ بوصف الإيمان لأنه هو الحامل على ما بعده من الولاية وما بعدها من أوصاف ، فلو تحقق وصف الإيمان كما ينبغي لكان من اليسير تحقق ما يلزمه ٠

و[أل] في [المؤمنون والمؤمنات] لإفادة العموم أي كل مؤمن ومؤمنة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم – داخل في الولاية وما بعدها ، إذ لا يعقل أن يكون هذا خاصاً بزمن دون زمن أو بلد دون بلد أو فئة دون فئة ، فلا ينبغي أن يخرج عن هذا مؤمن ولا مؤمنة في أي عصر وأي مصير ٠

والآية الكريمة تذكر مقومات المجتمع المسلم المتكامل ، وأول شيء إيمان تترتب عليه ولاية ، يترتب عليه أمر بمعروف ونهي عن منكر ، يترتب عليه إقامة الصلاة ثم إيتاء الزكاة ، ثم جمع كل ذلك وما عداه مما هو مثبوت في الكتاب والسنة ، من طاعة الله ورسوله ، ثم عقب ذلك بالعاقبة الحميدة وهي رحمة لهم الصادرة عن عزة وحكمة ٠

القرآن في كثير من آياته يكتفي بذكر المؤمنين ، والمؤمنات داخلات ، لكن ألاحظ أن بعض آيات القرآن يذكر المؤمنات مع المؤمنين ، وبعد التأمل لتلك الآيات وجدت أن ذكر المؤمنات لأمر يخصهن ، أو ربما يظن أن الأمر خاص بالمؤمنين فقط فبذكرهن رفعاً لذلك الاحتمال الوارد في بعض الآيات ، وهذه الآية التي نحن بصددها واحدة من تلك الآيات التي ذكر الله فيها المؤمنات ، ولعل السبب من وراء ذلك هو أمر الولاية في النكاح الذي هو خاص بالمرأة فحسب كما في الحديث (لا نكاح إلا بولي ٠٠) والرجل في عقد النكاح لا يحتاج لولاية بل هو ولي نفسه ٠

وقبل هذه الآية بآيات من نفس السورة ورد قوله **(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (التوبة:٦٧)**

وهذه المقابلة العجيبة التي قابل فيها القرآن بين صفات المنافقين وصفات المؤمنين ، وبضدها تتميز الأشياء – والضد يظهر حسنه الضد –

وفصل القرآن بين الآيتين بثلاث آيات حتى نعرف الفارق الحسي والمعنوي بين الأوصاف ، وليشير إلى أن أهل النفاق بصفاتهم لا يستحقون مجاورة أهل الإيمان بأوصافهم ، وفي ذلك من التبكيت والإبعاد ما فيه .

ولكن عندما تحدثت الآية عن المنافقين قالت [بعضهم من بعض] فجاء بـ(من) ، وعند الحديث عن المؤمنين أتي بهذا المعنى من غير (من) مع أن أهل الإيمان أولى ب(من) لأنها الدالة على الجزئية والبعضية ،

لقد أجاب عن هذا صاحب – غرائب التنزيل – بقوله « فإن قيل : كيف قال تعالى : [المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض] وقال بعده : [والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض] وكلمة [من] أدل على المشابهة والمجانسة من حيث أنها تقتضي الجزئية والبعضية ، فكانت بالمؤمنين أولى وأحري ، لأنهم أشد تشابهاً وتجانساً في الصفات والأخلاق ، قلنا المراد بقوله [بعضهم من بعض] أي بعضهم على دين بعض ، أي على عادتهم وخلقهم باضمار لفظة الدين والخلق ونحوه ، لأن [من] تأتي بمعنى [على] ، ومنه قوله تعالى : [ونصرناه من القوم الذين كـذبوا بآياتنا] الأنبياء : ٧٧ وقوله تعالى : [للذين يؤلون من نسائهم] (البقرة : ٢٢٦) أي : يحلفون على وطء نسائهم،وهذا المعنى هو المراد في قوله – عليه الصلاة والسلام - : فمن رغب عن سنتي فليس مني وقوله عليه الصلاة والسلام : من غشنا فليس منا ، والمراد بقوله تعالى : [بعضهم أولياء بعض] أي أنصارهم وأعوانهم في الدين ، وكل واحدة من العبارتين صالحة للفريقين ، إلا أنه يخص المنافقين بتلك العبارة تكذيباً لهم في حلفهم السابق في قوله تعالى : [ويحلفون بالله إنهم لمنكم] (التوبة : ٥٦) وتقريراً لقوله تعالى : [وما هم منكم] (التوبة : ٥٦)[١]

وأعلل تعليلاً آخر وهو أن حديث المنافقين لم يكن عن الولاية ، وإنما الحديث عن تأصيل تلك الصفات في مجموعهم ، وكأنها نختلط بهم اختلاطاً ، والحديث عن ولاية المؤمنين ، فلا يصح دخول من حيث المعنى ، فلا يصح أن نقول بعضهم أولياء من بعض

وقال الرازي في تفسيره (٠٠٠ لم ذكر في المنافقين لفظ [من] وفي المؤمنين لفظ [أولياء] قلنا : قوله في صفة المؤمنين [بعضهم من بعض] يدل على أن نفاق الأتباع كالأمر المتفرع عن نفاق الأسلاف والأمر في نفسه كذلك ، لأن نفاق الأتباع وكفرهم حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر ، وبسبب مقتضى الهوى والطليعة والقادة ، أما الموافقة الحاصلة بين المؤمنين فإنما حصلت لا بسبب الميل والعادة بل بسبب المشاركة في الاستدلال ، والتوفيق والهداية ، فلهذا السبب قال تعالى في المنافقين [بعضهم من بعض] وقال في المؤمنين [بعضهم أولياء بعض][٢]

وللمفسرين مقارنات عجيبة بين الآيتين نذكر منها ما قاله صاحب روح المعاني « وقوله سبحانه [بعضهم أولياء بعض] يقابله قوله تعالى فيما مر [بعضهم من بعض] ٠٠ وتغيير الأسلوب للإشارة إلى تناصرهم وتعاضدهم بخلاف أولئك ، وقوله عز وجل [يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر] ظاهر المقابلة لـ [يأمرون بالمنكر] الخ ٠٠٠ وقوله جل وعلا [ويقيمون الصلاة] في مقابلة [نسوا الله] ٠٠ وقوله تعالى جده [

---

١ - غرائب التنزيل ص١٧٥- ١٧٦ ٠ -- الإمام محمد بن ابي بكر الرازي، تحقيق عبد الرحمن بن

٢ - تفسير الرازي جـ١٦ ص١٠١

ويؤتون الزكاة] في مقابلة [يقبضون أيديهم] ٠٠ وقوله تبارك وتعالى [ويطيعون الله ورسوله] أي : في سائر الأمور ، في مقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة ، وقيل هو في مقابلة [نسوا الله] وقوله سبحانه [ويقيمون الصلاة] زيادة مدح ، - وتنويهاً بأن الصلاة هي أعظم المعروف – وقوله تعالى شأنه : [أولئك سيرحمهم الله] في مقابلة [فنسيهم] ٠٠٠ وقيل في مقابلة [أولئك هم الفاسقون] لأنه بمعنى المتقين المرحومين » ٠[١]

وقال الرازي « ٠٠ ذكر هذه الأمور الخمسة التي بها يتميز المؤمن من المنافق ، فالمنافق على ما وصفه الله – تعالى – في الآية المتقدمة يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ، والمؤمن بالضد منه ، والمنافق لا يقوم إلى الصلاة إلا مع نوع الكسل ، والمؤمن بالضد منه ، والمنافق يبخل بالزكاة وسائر الواجبات كما قال [ويقبضون أيديهم] والمؤمنون يؤتون الزكاة ، والمنافق إذا أمره الله بالمسارعة إلى الجهاد فإنه يتخلف بنفسه ويثبط غيره كما وصفه الله بذلك ، والمؤمنون بالضد منهم ، وهو المراد في هذه الآية بقوله [ويطيعون الله ورسوله] ثم لما ذكر صفات المؤمنين بين أنه كما وعد المنافقين نار جهنم فقد وعد المؤمنين الرحمة المستقبلة وهي ثواب الآخرة فلذلك قال : [أولئك سيرحمهم الله] » [٢]

وألاحظ أن النظم الكريم قدم المنكر على المعروف عند الحديث عن المنافقين ، وعند الحديث عن المؤمنين قدم المعروف والعلة هي شدة حرص المنافقين على إشاعة المنكر بين الناس وهذا الذي يتفق مع رغبتهم وميولهم ، وكذلك إذا ما شاع المنكر وكثر لم يظهر معه المعروف القليل ، وهذه التي تجري في دماء المنافقين ، وتعيش في قلوبهم وعقولهم ، بعكس المؤمنين الذين ينفعلون بالخير ويعيشون له وهو عادة متأصلة في نفوسهم لذلك بدأ به ، وفي ذلك بيان لرغبات الفريقين وحديث عن واقعهم ٠

وعن الحديث عن الزكاة قال في حق المنافقين [ويقبضون أيديهم] وقبض اليد هو كناية عن الشح الشديد ، وهذا التعبير أبلغ في تصوير مدى حرصهم وجشعهم ، وعدم تفريطهم في المال ولو كان حقاً لغيرهم ، مما لو قال يمنعون الزكاة ، ودخلت اليد في هذه الكناية لأنها وسيلة الإعطاء والتصدق ٠

ولم يقل في حق المؤمنين يبسطون أيديهم مقابلة لما ذكره في حق المنافقين ، لأن ذكر الزكاة مشعر بفائدتها ومذكر بوجوبها ، فالمؤمنون قد تجاوزوا بسط اليد إلى ما هو أرقى وأكمل وهو إيتاء الزكاة ، - فسبحان من هذا كلامه وبيانه –

وجميع الصفات الواردة في حق الفريقين عبر عنها بالفعل المضارع الدال على الاستمرار ، وفي ذلك مدح للمؤمنين باستمرارهم في التمسك بالخير ومواصلة الحرص عليه ، وذم لأهل النفاق باستمرارهم في الشر ومواصلة الحرص عليه

---

١ - أنظر روح المعاني جـ١٠ ص١٣٥ والتحرير والتنوير جـ ص
٢ - تفسير الرازي جـ١٦ ص١٠١

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة:٥٥)

في الآية الكريمة يعلم الله الأمة المسلمة أفراداً وجماعات من هو صالح لولايتهم ، لأن أمر الولاية ليس بالهين ولا اليسير ، فهو متعلق بمصيرها ، في حاضرها ومستقبلها ، في دينها ودنياها ، ولأنها تسلم قيادها إليه في كل تصرفاتها ، وحري بأمر هذا شأنه أن يحدده الله ويبينه ويوضحه بنفسه حتى لا تختلط الأمور ودفعاً لحب السيطرة والهيمنة والزعامة .

ثم إنه سبحانه لما قال لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء وعلله بما علله ذكر عقب ذلك من هو حقيق بالولاية بطريق القصر فقال : عز وجل (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) فكأنه قيل لا تتخذوا أولئك أولياء لأن بعضهم أولياء بعض وليسوا بأوليائكم إنما أولياؤكم الله تعالى ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة ولا تتخطوهم إلى الغير . [١]

ويفهم من كلام صاحب البحر أن الآية نزلت في عموم من آمن ، « وظاهر قوله : {والذين آمنوا } عموم من آمن ، من مضى منهم ومن بقي ، قاله الحسن . وسئل الباقر عمن نزلت فيه هذه الآية ، أهو علي ؟ ، فقال : علي من المؤمنين . ، وقيل : { الذين آمنوا} هو علي ، رواه أبو صالح ، عن ابن عباس . . وبه قال مقاتل، ويكون من إطلاق الجمع على الواحد مجازاً . ، وقيل : ابن سلام وأصحابه . ، وقيل : عبادة لما تبرأ من حلفائه اليهود.، وقيل : أبو بكر– رضي الله عنه –، قاله عكرمة» [٢]

وأرجح عموم الآية للأسباب الآتية :

أولاً : يتفق هذا مع مصالح الأمة في مختلف العصور والبلدان .

ثانياً : مالا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إلى تأويل .

ثالثاً : إعادة لفظ { الذين آمنوا } جمعاً في الآية آ التي تليها عند ذكر الجزاء (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) (المائدة:٥٦)

رابعاً:حتى وإن صحت بقية الأقوال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

خامساً : وقول أبي جعفر محمد بن علي الباقر الذي سبق ذكره يؤكد ذلك

وبدأ ت الآية بهذا الحصر المؤكد لما احتواه ، وما عطف عليه ، وقد استخدم فيه طريق [إنما] دون سائر طرق القصر ليدلل بذلك على أن هذا الأمر معلوم ، وينبغي ألا ينكره أو يشك فيه أحد « والقصر المستفاد من [إنما] قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً»[٣]

---

(١) -- روح المعاني ج: ٦ ص: ١٦٦

(٢) -- البحر المحيط ج ٤ ص ٣٠٠

(٣) -- التحرير والتنوير ج ٦ ص ٢٣٩

موقع هذه الجملة موقع التعليل للنهي ، لأن ولايتهم لله ورسوله مقررة عندهم ، فمن كان الله وليه لاتكون أعداء الله أولياءه . وتفيد هذه الجملة تأكيداً للنهي عن ولاية اليهود والنصارى . وفيه تنويه بالمؤمنين بأنهم أولياء الله ورسوله بطريقة تأكيد النفي أو النهي بالأمر بضده لأن قوله { إنما وليكم الله ورسوله } يتضمن أمراً بتقرير هذه الولاية ودوامها ، فهو خبر مستعمل في معنى الأمر [١]

« وفسر الولي هنا ، بالناصر ، أو المتولي الأمر ، أو المحب » [٢] وحصر المعنى في واحد من هذه الثلاث لا ينسجم مع جلال النظم القرآني ، فالمحب قد لا يكون متولياً ، وقد لا يستطيع النصرة ، والمتولي وحده قد لا يكون محباً، وقد لا يستطيع النصرة ، والناصر وحده قد ينصر وهو كاره ، فلم يبق إلا أن اللفظ يحتمل المعاني الثلاثة ، وما هو أكثر من ذلك مما يشعر به اللفظ .

وجاء لفظ الولي مفرداً والمتحدث عنه جمع ، فلم يقل أولياؤكم« لأن ولياً اسم جنس . أو لأن الولاية حقيقة هي لله – تعالى – على سبيل الأصل ، ثم نظم في سلكه من ذكر على سبيل التبع ، ولو جاء جمعاً لم يتبين هذا المعنى من الأصالة والتبعية .، وقرأ عبد الله {مولاكم} » [٣]

وأرى استقلال كل جملة من الجمل الثلاث ، وحذف الولي من الجملة الثانية والثالثة لدلالة الأول عليه ، وذلك لأن ولاية الله عامة وولاية رسوله خاصة وولاية المؤمنين أخص ، ولا نستطيع بحال من الأحوال أن نساوى بين ولاية الله من جهة وولاية رسوله والمؤمنين من جهة أخرى في جميع الوجوه .

وأضاف الولي إليهم تشريفاً وتكريماً وحثاً على الاتباع والانصياع ، ويفهم منها التعريض بغيرهم ممن وكلهم الله إلى أنفسهم وهم الذين رضوا بغير ولاية الله ورسوله والمؤمنين ، وأتى بلفظ الجلالة – وهو علم على الذات العلية – دون ضمير التكلم ، لأنه من أعرف المعارف ، ولأنه يربي المهابة في نفوسهم ويحملهم على الاستجابة لما بعده .

وبعد ما بدأ بولاية الله –تعالى – ثنى بولاية رسوله – صل الله عليه وسلم – مع إضافته إليه –تعالى – إضافة تشريف وتكريم ، وحمل على اتباعه –صل الله عليه وسلم – لأنه من قبل الله . في كل ما جاء به من أوامر ومنهيات وسائر التشريعات والأحكام .

-١) - التحرير والتنوير ج ٦ ص ٢٣٩
(٢) -- البحر المحيط ج ٤ ص ٣٠٠
(٣) -- البحر المحيط ج٤ ص ٣٠٠

وعند الحديث عن ولاية المؤمنين لم يقل : والمؤمنون وإنما أتى بالموصول زيادة في التقرير والتأكيد ، والذي دعا لهذا، أن ولاية الله ورسوله ليست محل خلاف ، أما ولاية المؤمنين فهي موضع خلاف في الغالب ، وما حدث في عهد الخلفاء ومن جاء بعدهم يدل على ذلك .

ورتبت الولاية حسب الأهمية فولاية الله تعالى هي أصل الولاية وأساسها ، ثم تترتب عليها ولاية الرسول – صل الله عليه وسلم – لأنه هو المبلغ عن الله ، ثم ولاية المؤمنين لأنها من ولاية الله ورسوله .

ولما كان أمر الولاية في غاية الأهمية جاء النظم الكريم بأسلوب الخطاب الدال على المواجهة والمشعر بالقرب حتى تتلقاه النفوس باهتمام وحرص .

ثم ذكر الله أوصاف أهل هذه التبعة فبدأ بإقامة الصلاة لأنها عماد الدين ولأنها من أهم مظاهر الإسلام ، ولأن أهل النفاق لا يهتمون بها ، وكثيراً ما يفرطون في أمرها و وكذلك الزكاة ، و« هذه أوصاف ميز الله بها المؤمن الخالص الإيمان من المنافق ، لأن المنافق لا يدوم على الصلاة ولا على الزكاة ، قال تعالى :-- (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى)-- (النساء:١٤٢) ، وقال تعالى : (أَ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ) (الأحزاب:١٩) ، ولما كانت الصحابة وقت نزول هذه الآية من مقيمي صلاة ومؤتي زكاة ، وفي كلتا الحالتين كانوا متصفين بالخضوع لله – تعالى – والتذلل له ، نزلت الآية بهذه الأوصاف الجليلة » [١]

ورجح صاحب البحر كون جملة { الذين يقيمون الصلاة } صفة لا بدل « وقال الزمخشري. (فإن قلت): الذين يقيمون ما محله؟ (قلت): الرفع على البدل من الذين آمنوا، أو على هم الذين يقيمون انتهى. ولا أدري ما الذي منعه من الصفة إذ هو المتبادر إلى الذهن، لأن المبدل منه في نية الطرح، وهو لا يصح هنا طرح الذين آمنوا لأنه هو الوصف المترتب عليه صحة ما بعده من الأوصاف. » [٢]

والمراد بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فعلهما أولاً من جهة الولاة ، ثم الحث والحمل على فعلهما ، و يترتب على هذا أن المراد بالصلاة صلاة الفريضة . وكذلك الزكاة ، ويؤكد هذا حديث الآية عن الولاة فهم لايحملون على فعل النوافل من الصلاة وفعل التطوع من الزكاة.

---

(١) -- البحر المحيط ج ٤ ص ٣٠٠-٣٠١

(٢) -- البحر المحيط ج ٤ ص ٣٠١

وإن كان بعض المفسرين قد ذهبوا **إلى أن** « الزكاة هنا لفظ عام للزكاة المفروضة والتطوع بالصدقة ولكل أفعال البر إذ هي منمية للحسنات مطهرة للمرء من دنس السيئات » [١] . والمقام والسياق يخالفان هذا .، وأبو بكر الصديق – رضي الله عنه - عندما قاتل مانعي الزكاة قاتل من منعوا زكاة الفريضة ولم يقاتل مانعي صدقة التطوع .

وعبر بالمضارع عند الحديث عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ليدل على أن فعل ذلك منهم متجدد ومستمر ، فكلما حان وقت الصلاة أقاموها ، وكلما بلغ ما عندهم من المال النصاب وحال عليه الحول أدوا زكاته.

واختلف المفسرون في المراد بالركوع الوارد في الآية و ولهم في ذلك « ثلاثة أقوال : أحدها : أنه نفس الركوع على ما روى أبو صالح عن ابن عباس ، وقيل : إن الآية نزلت وهم في الركوع ، والثاني : أنه صلاة التطوع بالليل والنهار ، وإنما أفرد الركوع بالذكر تشريفا له وهذا مروي عن ابن عباس أيضا ، والثالث : أنه الخضوع والخشوع وأنشدوا :

لا تذل الفقير علك أن تركع يوما والدهر قد رفعه ذكره الماوردي . » [٢]

وقال صاحب البحر « والركوع هنا ظاهره الخضوع، لا الهيئة التي في الصلاة. وقيل: المراد الهيئة، وخصت بالذكر لأنها من أعظم أركان الصلاة، فعبر بها عن جميع الصلاة، إلا أنه يلزم في هذا القول تكرير الصلاة لقوله: يقيمون الصلاة. ويمكن أن يكون التكرار على سبيل التوكيد لشرف الصلاة وعظمها في التكاليف الإسلامية . وقيل: المراد بالصلاة هنا الفرائض، وبالركوع التنفل. يقال: فلان يركع إذا تنفل بالصلاة. » [٣]

ورجح الثعالبي كون الركوع كل أفعال الصلاة « ثم وصفهم سبحانه بتكثير الركوع ، وخص بالذكر لكونه من أعظم أركان الصلاة ، وهي هيئة تواضع ، فعبر به عن جميع الصلاة كما قال سبحانه (والركع السجود) هذا هو الصحيح وهو تأويل الجمهور . » [٤]

ثم ذكر تعالى المنشط والمشجع فقال : (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) (المائدة:٥٦) والقرآن قد عدل عن الضمير أو الإشارة إلى الاسم الظاهر

---

(١) -- تفسير الثعالبي ج: ١ ص: ٤٧١ :: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي-- دار النشر :: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات-- مدينة النشر :: بيروت

(٢) -- زاد المسير ج: ٢ ص: ٣٨٤ -- زاد المسير في علم التفسير

اسم المؤلف :: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي-- ولادة المؤلف :: ٥٠٨-- وفاة المؤلف :: ٥٩٧-- دار النشر :: المكتب الإسلامي-- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٤٠٤-- رقم الطبعة :: الثالثة

(٣) البحر المحيط ج ٤ ص ٣٠١

(٤) -- تفسير الثعالبي ج: ١ ص: ٤٧١

(2) -- البحر المحيط ج ٤ ص٣٠١

، وذلك لتأكيد الأمر وأهميته ، وأضافهم إلى الله تشريفاً وتكريماً لهم ، وليكون ذلك حافزا ومشجعاً على الإقبال ، فالذي ينضوي تحت ولاية الله ورسوله وأهل الإيمان هو حقيق بأن يكون من حزب الله ، وكل من كان من حزب الله فهو مفلح وموفق وله الثواب الجزيل في الدنيا والآخرة ، وفيه تعريض شديد بمن تنكب هذا الطريق وحاد عنه .

وجاءت العبارة عامة (إنّ حزب الله هم الغالبون) اختصاراً، لأن هذا المتولي هو من حزب الله، وحزب الله غالب ، فهذا الذي تولى الله ورسوله غالب. ومن يراد بها الجنس لا مفرد، وهم هنا يحتمل أن يكون فصلاً ، ويحتمل أن يكون مبتدأ.

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (لأنفال:٢) (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (لأنفال:٣))أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (لأنفال:٤)

بدأت الآيات بالتمهيد لإقامة الصلاة والإنفاق فالقلب الذاكر أو الذي إذا سمع الذكر يوجل قلبه من خشية الله ، فعندئذ يدخل الصلاة بخشوع وخضوع وسكينة ووقار ، ثم يسارع في بذل المعروف بنفس راضية تواقة إلى ذلك .

ولكن هل يتعارض الوجل مع الطمأنينة ، لقد أجاب عن ذالك صاحب الإتقان بقوله « فقد يظن أن الوجل خلاف الطمأنينة ، وجوابه أن الطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد ، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى فتوجه القلوب لذلك ، وقد جمع بينهما في قوله (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) . » [١]

وبدأ بوصف الإيمان ليكون مرغباً ومشجعاً على الامتثال ، قال أبو السعود : « إنما المؤمنين جملة مستأنفة مسوقة لبيان من أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث ، وفيه مزيد ترغيب لهم في الامتثال بالأوامر المذكورة ،أي : إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه » [٢] قال الزجاج إذا ذكرت عظمته وقدرته وما خوف به من عصاه فزعت قلوبهم قال الشاعر :

لعمرك ما أدري وإني لأوجل

على أينا تعدو المنية أول

---

(١)١ الإتقان ج: ٢ ص: ٧٨

(٢) تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٤

يقال وجل يوجل وياجل وييجل هذه أربع لغات حكاها سيبويه ، وأجودها يوجل، وقال السدي : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر الله فينزع عنها [١]

ومن توفرت فيهم تلك الصفات لا ريب أنهم سيقدمون على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بقلوب مطمئنة ونفوس راضية ،

والقرآن كثيراً ما يقرن بين الصلاة والزكاة ، وقد علل لذلك ابن القيم بقوله « وقرن سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع في كتابه فأمر بهما تارة ، وأثنى على فاعليهما تارة ، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة ، فإن مدار النجاة عليهما ، ولا فلاح لمن أخل بهما » [٢]

وقدم –تعالى أعمال القلوب على أعمال الجوارح لأنها أصل لها وأفضل منها « ذكر أولا من أعمالهم الحسنة أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، ثم عقب بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة » [٣]

وخص إقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وأساسه [٤] ثم أثنى عليهم – سبحانه وتعالى – وامتدحهم بقوله : {أولئك هم المؤمنون حقاً } وهو « إشارة إلى من ذكرت صفاتهم الحميدة من حيث إنهم متصفون بها ، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك عمن عداهم أكمل تميز، منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الشرف » [٥]

ثم بين جزاءهم بقوله { لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم }والمتأمل في هذا الجزاء يجد أنه بدأ بأصحاب الجزاء ، وهدا يل على منزلتهم وتكريمهم واختصاصهم ، وهذا يزيد من فرحهم وسعادتهم إو هو« جملة مبتدأة مبنية على سؤال نشأ من تعداد مناقبهم» [٦]

---

(١) زاد المسير ج: ٣ ص: ٣٢٠

٢) التبيان في أقسام القرآن ج: ١ ص: ١٠٨٩--:: شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري ،وفاة المؤلف :: ٨١٥--دار النشر :: دار الصحابة للتراث بطنطا-- -مدينة النشر :: القاهرة-- سنة النشر :: ١٩٩٢رقم الطبعة :: الأولى-- اسم المحقق :: د.فتحي أنور الدابولي

(٣) تفسير أبي السعود ج: ٤ ص: ٤

(٤) فتح القدير ج: ٢ ص: ٢٨٦ --:: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير-- اسم المؤلف :: محمد بن علي بن محمد الشوكاني-- ولادة المؤلف :: ١١٧٣-- وفاة المؤلف :: ١٢٥٠-- دار النشر :: دار الفكر-- مدينة النشر :: بيروت-- عدد الأجزاء :: ٥

(٥) تفسير أبي السعود ج: ٤ ص: ٤

(٦) تفسير أبي السعود ج: ٤ ص: ٤

ونكر الدرجات تعظيماً لها ، ثم زادها تعظيماً وتفخيما بكونها عند ربهم لا غيره ، ثم ذكر المغفرة حتى لا يتأسفوا على ما فرط منهم ،وهذا غاية مرادهم وأسمى أمانيهم ، ثم ختم هذا الجزاء بالرزق وجعله عاماً حتى يشمل كل رزق في الدنيا والآخرة ، وهذا من تمام النعمة وعظيم الأجر.

وقد أدرك صاحب البحر هذه المقابلة العجيبة البليغة بين العمل والجزاء فقال : « لما تقدمت ثلاث صفات قلبية وبدنية ومالية ترتّب عليها ثلاثة أشياء ، فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات، والبدنية بالغفران، وفي الحديث أن رجلاً أتى من امرأة أجنبية ما يأتيه الرجل من أهله غير الوطء، فسأله الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما أخبر بذلك أصلّيت معنا فقال نعم ، فقال له: غفر الله لك ، وقوبلت المالية بالرزق بالكريم وهذا النوع [١] من المقابلة من بديع علم البيان.[٢]

قوله تعالى :(هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (النمل:٢) (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) (النمل:٣)

وصف الله القرآن بأنه هدى وبشرى ، وجعل ذالك خاصاً بالمؤمنين، وإن كانت الهداية عامة إلا أن القرآن لم يعتد بالاهتداء إلا بعد حصوله ، وهذا لا يتحقق إلا في المؤمنين .

وهدى وبشرى « في حيز النصب على الحالية من { آيات } على إقامة المصدز مقام الفاعل فيه للمبلغة ، كأنها نفس الهدى والبشارة » [٣]

وقال صاحب التحرير والتنوير : « {هدى وبشرى} حالان من كتاب بعد وصفه بمبين.، وجعل الحال مصدراً للمبالغة بقوة تسببه في الهدى وتبليغه البشرى للمؤمنين.فالمعنى: أن الهدى للمؤمنين والبشرى حاصلان منه ومستمران من آياته.والبشرى: اسم للتبشير، ووصف الكتاب بالهدى والبشرى جار على طريقة المجاز العقلي ، وإنما الهادي والمبشر الله أو الرسول بسبب الكتاب. والعامل في الحال ما في اسم الإشارة من معنى: أُشير، كقوله: {وهذا بعلي شيخاً}(هود: ٧٢)، »[٤]

---

(١) وصاحب البحر هنا جرى على سنن من عاصروه ومن سبقوه من عدم الفصل بين بين علوم البلاغة الثلاث آلتي عرفت بعد ذالك وذلك لأن المقابلة ليست من علم البيان بل هي من البديع فهو يعني بالبيان البلاغة عامة

(٢) البحر المحيط ج ٥ ص٢٧٢

(٣) روح المعاني ج ١٩ ص ١٥٦

(٤) التحرير والتنوير ج ١٩ ص ٢١٨-٢١٩

وقدم الهداية على البشارة لأن البشارة لا تكون لإ بعد الهداية ، فمن اهتدى فله البشرى، ومن تنكب الطريق فله الخوف والهلع ، وانتظار العذاب أشد وأنكى على النفس من العذاب نفسه .

ثم وصف الله أهل الإيمان بوصفين بعد تحقق الإيمان ، الأول : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . ، والثاني : الإيقان بالآخرة .

ووصف المؤمنين بالموصول لتمييزهم عن غيرهم لأنهم عُرفوا يومئذ بإقامة الصلاة وإعطاء الصدقات للفقراء والمساكين ، ألا ترى أن الله عرّف الكفار بقوله {وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة}(فصلت: ٦، ٧)، ولأن في الصلة إيماء إلى وجه بناء الإخبار عنهم بأنهم على هدى من ربّهم ومفلحون. (١)

ولقد مدح الله أهل الإيمان بأنهم يحافظون على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . قال الألوسي : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) صفة مادحة للمؤمنين ، وكني باقامة الصلاة وإيتاء الزكاة عن عمل الصالحات مطلقا ، وخصا لأنهما على ما قيل أما العبادة البدنية والمالية ، والظاهر أنه حمل الزكاة على الزكاة المفروضة » (٢)

ويعلل صاحب التحرير والتنوير لمجيء صلة الموصول جملة فعلية وما عطف عليها جملة اسمية بقوله : « جملة { وهم بالآخرة هم يوقنون } عطف على الصلة وليست من الصلة ، ولذالك خولف بين أسلوبها وأسلوب الصلة فأتى له بجملة اسمية اهتماماً بمضمونها لأنه باعث على فعل الخيرات ، على ان ضمير { هم } الثاني يجوز ان يعتبر ضمير فصل دالاً على القصر ، أى : ما يوقن بالآخرة إلا هؤلاء، والقصر إضافي بالنسبة لمجاوريهم من المشركين ، و إلا فإن أهل الكتاب يوقنون بالآخرة إلا أنهم غير مقصود حالهم للمخاطبين من الفريقين » (٣)

وتقديم الجار والمجرور في قولة{ وبالآخرة هم يوقنون ، الغرض منه رعاية الفاصلة والاهتمام بشأن المقدم حيث إن الآخرة والتيقن منها موضع شك وارتياب من أهل الشرك { عم يتسألون عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون } .

وعندما نقارن بين هذه الآية والتي في أول سورة البقرة نجد وجه شبه ، حيث هناك وصف الإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والتيقن من الآخرة ، لكن في البقرة قال { هدى

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٩ ص ٢١٩
(٢) روح المعاني ج: ١٩ ص: ١٥٦
(٣) التحرير والتنوير ج ١٩ ص ٢١٩

للمتقين } وهنا قال {هدى وبشرى للمؤمنين}فاقتصر النظم الكريم هناك على الهدى ولم يذكر البشرى وذلك لان أية البقرة مدنية ، والآية هنا مكية و أهل الشرك في حاجة إلى الحافز والمشجع لذلك جاء بالبشرى بجانب الهداية، أما وصف التقوى هناك ووصف الإيمان هنا لأنه راعي في البقرة أهل الإيمان ووصف التقوى بعد الإيمان ، أما أهل مكة وهم المعنيون هنا فركز النظم الكريم على الإيمان لأنه الأساس والأصل.

قوله تعالى : (هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ) (لقمان:٣) (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) (لقمان:٤(أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (لقمان:٥)

وصف الله الكتاب بأنه هدى ورحمة ، فأضفى عليه ظلال الحياة فهو حي بشعر ويحس ويتفاعل مع قارئه بقدر إخلاصه وتدبره له وتفكره فيه ، وأهل الإيمان يشعرون بهذا المعنى ويعايشونه فهو معهم مثل الحي مع الحي والصديق مع الصديق ، وهو بأمرهم وينهاهم ويحب لهم الخير « وتحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة ، والخير الكثير والثواب الجزيل والفرح والسرور ، ويدفع عنهم الضلال والشقاء » [١]

والصلة وثيقة وقوية بين أول سورة لقمان وآخر سورة الروم ، قال صاحب أسرار ترتيب القرآن : « أقول ظهر لي في اتصالها بما قبلها مع المؤاخاة في الافتتاح بـ(الم) أن قوله تعالى : هنا (هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) ٣ ٤ متعلق بقوله في آخر سورة الروم (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ٥٦ الآية ، فهذا عين إيقانهم بالآخرة وهم المحسنون الموقنون بما ذكر، وأيضا ففي كلتا السورتين جملة من الأديان وبدء الخلق »[٢]

ولماذا قال في سورة البقرة { هدى للمتقين } وهنا قال {هدى ورحمة للمحسنين } علل السيوطي لذلك بقوله : « لأنه لما ذكر هنا مجموع الإيمان ناسب المتقين ، ولما ذكر ثم الرحمة ناسب المحسنين»[٣]

والرازي له مقارنة عجيبة يبن أول البقرة وأول هذه السورة وجعل ذلك في ثلاث مسائل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن – عبد الرحمن ناصر السعدي

(٢)أسرار ترتيب القرآن ج: ١ ص: ١٢٥ -- أسرار ترتيب القرآن -- اسم المؤلف :: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل-- ولادة المؤلف :: ٨٤٩-- وفاة المؤلف :: ٩١١-- دار النشر :: دار الاعتصام-- مدينة النشر :: القاهرة-- عدد الأجزاء :: ١-- اسم المحقق :: عبد القادر أحمد عطا

(٣) الإتقان ج: ٢ ص: ٣٠٥

المسألة الأولى: قال في سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ } (البقرة: ١) ولم يقل الحكيم ، وههنا قال {الْحَكِيمُ } فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر في أحواله فقال: {هُدًى وَرَحْمَةٌ } وقال هناك / {ه/ {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } (البقرة: ١) فقوله: {هُدًى } في مقابلة قوله: {الكتاب } وقوله: {وَرَحْمَةٌ } في مقابلة قوله: {الْحَكِيمُ } ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذي الحكم ، كقوله تعالى: { في عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ } (الحاقة: ٢١) أي ذات رضا.

المسألة الثانية: قال هناك {لِّلْمُتَّقِينَ } وقال ههنا {لِّلْمُحْسِنِينَ } لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئاً آخر قال: {لِّلْمُتَّقِينَ } أي يهتدي به من يتقي الشرك والعناد والتعصب، وينظر فيه من غير عناد، ولما زاد ههنا رحمة قال: {لِّلْمُحْسِنِينَ } أي المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الإحسان فالمحسن هو الآتي بالإيمان والمتقي هو التارك للكفر، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ } (النحل: ١٢٨) ومن جانب الكفر كان متقياً وله الجنة، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسناً وله الزيادة لقوله تعالى: { لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } (يونس: ٢٦) ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال: {لِّلْمُحْسِنِينَ } لأن رحمة الله قريب من المحسنين.

المسألة الثالثة: قال هناك {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلوةَ } (البقرة: ٣) وقال ههنا {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ } ولم يقل يؤمنون لما بينا أن المتقي هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمناً والمحسن هو الآتي بحق الإيمان، ويلزمه أن لا يكون كافراً، فلما كان المتقي دالاً على المؤمن في الالتزام صرح بالإيمان هناك تبييناً ولما كان المحسن دالاً على الإيمان بالتنصيص لم يصرح بالإيمان:. [١]

وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) بيان لإحسانهم ، أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه لفضل اعتداد بها ، وتكرير الضمير للتوكيد ، ولما حيل بينه وبين خبره (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) لاستجماعهم العقيدة الحقة والعمل الصالح [٢]

والذين يقيمون الصلاة هم أهل الإحسان وكذلك هم أهل التقوى ، فلا تتصور صلاة بدون إحسان وتقوى ، وهكذا جميع الصفات التي تتقدم فالصلاة في حاجة إليها، ولا تصلح

---

(١) تفسير الرازي ج ٢٥ ص ١١٦

(٢) تفسير البيضاوي ج: ٤ ص: ٣٤٤-- وفاة المؤلف :: ٧٩١-- دار النشر :: دار الفكرمدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٤١٦ - ١٩٩٦-- عدد الأجزاء :: ٥-- اسم المحقق :: عبد القادر عرفات العشا حسونة--

بدونها ولو أديت ، وبهذا يعلم الإسلام أتباعه كيف يدخلون الصلاة وقد امتزجت أرواحهم وجوارحهم بتلك الصفات التي ذكرها القرآن قبل ذكر الصلاة في جميع المواطن

ونجد الأفعال المضارعة المستعملة في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخرة وذلك لأن هذه الأوصاف تحتاج إلى تجدد واستمرار ، فلا ينقطع المؤمن عن إقامة الصلاة بأي حال من الأحوال ، هذا هو مفهوم الاستمرار بالنسبة للصلاة ، أما مفهوم التجدد فلأن الصلوات بينها أوقات فراغ ليس العبد مطالباً بإقامتها فيها فكل ما حان وقت الصلاة احتاج المؤمن إلى هذا التجدد .

أما مفهوم الاستمرار بالنسبة للزكاة فكلما حال الحول وبلغ النصاب وتوفرت بقية الشروط استمر المؤمن في إيتاء الزكاة هذا بالنسبة لزكاة الفريضة ، أما النافلة فينطبق الاستمرار كلما أمكن ذلك .، أما مفهوم التجدد فلأنه ليس كل مؤمن تتوفر فيه الشروط كل الوقت ، فكلما توفرت الشروط في الفريضة والاستطاعة في النافلة احتاج إلى التجدد.

أما مفهوم الاستمرار بالنسبة للتيقن من الآخرة فيجب ألا يغيب هذا الأمر عن عقيدة المؤمن لحظة ، أما مفهوم التجدد فلأن وسوسة الشيطان وتزين الدنيا وفتنة المال والولد ربما يغيب هذا الأمر عن عقيدة المؤمن فمن هنا يحتاج إلى هذا التجدد ، ولا غرابة في ذلك فقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم-- كثيراً ما يأمر أصحابه بتجديد إيمانهم . والإيمان يرتفع عن صاحبه وقت المعصية ثم يعود إليه .

وقال الألوسي « وذكر بعض أجلة المفسرين في قوله تعالى أول سورة البقرة (وهم بالآخرة هم يوقنون) إن بناء يوقنون على هم يدل **على** أن مقابليهم ليسوا من اليقين في ظل ولا فيء ، وإن تقديم في الآخرة يدل على أن ما عليه مقابلوهم ليس من الآخرة في شيء ، وذلك لإفادة تقديم الفاعل المعنوي وتقديم الجار على متعلقه الاختصاص»[١]

ثم جاء الحكم بفلاحهم من لدن عليم خبير ، والتعبير بـ{على هدى} يدل على تمكنهم منه ، والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية يدل عل ثباتهم على الفلاح والهداية ، وقوله { من ربهم } يزيدهم ثقة وفرحاً وسروراً وتمسكاً بما مر من أوصاف واستمراراً عليها .

{أولئك } هم المحسنون الجامعون بين العلم التام والعمل { على هدى } أي عظيم كما يفيده التنكير وذلك الهدى حاصل لهم وواصل إليهم { من ربهم } الذي لم يزل يربيهم بالنعم ويدفع عنهم النقم ، وهذا الهدى الذي أوصله إليهم من تربيته الخاصة بأوليائه وهو

---

(١)روح المعاني ج: ٢١ ص: ٦٦

أفضل أنواع التربية { وأولئك هم المفلحون } الذين أدركوا رضا ربهم وثوابه الدنيوي والأخروي ، وسلموا من سخطه وعقابه ، وذلك لسلوكهم طريق الفلاح الذي لا طريق له غيرها [١]

قوله تعالى : (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ) (إبراهيم: ٣١)

خاطب الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – ليأمر أهل الإيمان بإقامة الصلاة وهذا مغاير للكثير من الآيات التي كلف الله فيها أهل الإيمان بنفسه ، والغرض من ذلك هو التلوين في أساليب التكليف حتى لا يكون على وتيرة واحدة ، وأيضاً فيه تشريف وتكريم لرسوله – صلى الله عليه وسلم – فهو أهل لخطاب الله – تعالى - وأهل لمؤانسته ، وحتى يعلم أهل الإيمان بهذه المكانة والمنزلة ، وليدل على أمانته – صلى الله عليه وسلم - في نقله عن الله – تعالى –

لما ذكر تعالى حال الكفار وكفرهم نعمته، وجعلهم له أنداداً، وتهددهم أمر المؤمنين بلزوم الطاعة والتيقظ لأنفاسهم، وإلزام عمودي الإسلام الصلاة والزكاة قبل مجيء يوم القيامة. [٢]

ولما كانوا متحلين بالكمال صِيغَ الحديث عنهم بعنوان الوصف بالإيمان ، وبصيغة الأمر بما هم فيه من صلاة وإنفاق لقصد الدوام على ذلك، فحصلت بذلك مناسبة وقع هذه الآية بعد التي قبلها لمناسبة تضاد الحالين. [٣]

وذكر الزمخشري أن مقول القول محذوف ، أو أن الفعل المضارع حذفت منه لام الأمر « المقول محذوف، لأن جواب {قُل} يدل عليه، وتقديره {قُل لِّعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُواْ } أقيموا الصلاة وأنفقوا {يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنْفِقُواْ } وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا، بمعنى: ليقيموا ولينفقوا، ويكون هذا هو المقول ، قالوا: وإنما جاز حذف اللام ، لأنّ الأمر الذي هو {قُل} عوض منه ، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام، لم يجز » [٤]

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٦٤٦
(٢) البحر المحيط ج ٦ ص ٤٣٧ .
(٣) التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٣٢ .
(2) تفسير الكشاف ، ج ٢ ص ٣٧٨ .

وخاطبهم بأحب شيء ، إليهم حيث سماهم عباد ، وأضافهم إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم ، وهذا أدعى للامتثال والمسارعة إلى مراده –تعالى - ، وكل ما ورد من لفظ العباد في القرآن الكريم فالمراد به أهل الإيمان ، إلا في موضع واحد وهو قوله – تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) (الفرقان:١٧) فالمراد بالعباد هم أهل الضلال والعلة في ذلك **أن** هذه الآية وردت في يوم القيامة ، ويوم القيامة لا تكليف ، فلا فرق بين **العباد** والعبيد . وأيضاً يريد الله أن يعرف رسوله بمنزلتهم عنده .

وعرفهم بالموصول تعظيماً وتكريماً لهم ، ولمدحهم بما في حيز الصلة ، وكفاهم غبطة وفخراً أن العليم الخبير قد خلع عليهم هذا الوصف ، هل بغد ذلك يتقاعسون عن أمر الله .

وجاء الأمر بصيغة المضارع ليفهم منه معنى الاستمرار والأمر وهذا بعكس صيغة الأمر المباشرة بفعل الأمر ، وكذلك الإنفاق .

قال صاحب التحرير والتنوير : « ولما كان المؤمنون يقيمون الصلاة من قبل وينفقون من قبل تعين أن المراد الاستزادة من ذلك، ولذلك اختير المضارع مع تقدير لام الأمر دون صيغة فعل الأمر، لأن المضارع دال على التجدد، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبس بالفعل الذي يؤمر به بخلاف صيغة (افعل) فإن أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به ممن لم يكن متلبساً به ، فأصل (يقيموا الصلاة} ليقيموا، فحذفت لام الأمر تخفيفاً. »[١]

وقد نصت الآية الكريمة على الإنفاق في السر والعلن والمراد بالعلن زكاة الفريضة ، والسر صدقة التطوع ، أو المراد بالعلن عند عدم خوف الرياء ، والسر عند خوف الرياء ، أو المراد التخيير بين الأمرين حسب ما تقتضيه حال الفقير وحال المنفق

« وتقديم السر على العلانية تنبيه على أنه أولى الحالين لبعده عن خواطر السر على العلانية تنبيه على ما فيه استبقاءً لبعض حياء المتصدق عليه »[٢]

وقوله {رزقناهم } أضاف الرزق إلى نفسه ، حتى لا يشعر الغني بأنه صاحب فضل على الفقير ، أو يمن عليه إن ساءت العلاقة (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ) (البقرة:٢٦٣)

وزيادة (مما رزقناهم} للتذكير بالنعمة تحريضاً على الإنفاق ليكون شكراً للنعمة. [٣]

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٣٢
(٢) التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٣٢
(٣) التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٣٢

ثم جاء التحذير من مغبة التفريط في أمر الله ، والتنبيه من الغفلة من قبل أن يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه إلا العمل ، ونفى عن اليوم أهم مصادر الانتفاع وهما المعاوضة بالبيع ، ومنفعة الصداقة .

قال الزمخشري : فإن قلت: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه {لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلال } قلت: من قبل أنّ الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات، فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها. وأمّا الإنفاق لوجه الله خالصاً كقوله تعالى: {وَمَا لأحد عِندَهُ مِن نّعْمَةٍ * تَجْزِى * إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبّهِ الأعلى } (الليل: ٢٠) فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال، أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاوضات والمكارمات، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله خالصاً . [١]

وقال صاحب التحرير والتنوير : أي ليفعلوا ذينك الأمرين قبل حلول اليوم الذي تتعذر فيه المعاوضات والإنفاق. وهذا كناية عن عظيم منافع إقامة الصلاة والإنفاق قبل يوم الجزاء عنهما حين يتمنون أن يكونوا ازدادوا من ذينك لما يسرهم من ثوابهما فلا يجدون سبيلاً للاستزادة منهما ، إذ لا بيع يومئذٍ فيشترى الثواب ، ولا خلال من شأنها الإرفاد والإسعاف بالثواب. فالمراد بالبيع المعاوضة وبالخلال الكناية عن التبرع.[٢]

وإدخال حرف الجر على اسم الزمان وهو (قبل} لتأكيد القبلية ليفهم معنى المبادرة. [٣]

قوله تعالى : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (ابراهيم:٣٧)

نبي الله إبراهيم – عليه السلام – فدم حالته بين يدي ربه قبل حاجته ومسألته ، وما ذلك إلا استجلاباً للعطف والرحمة ، وإن كان الله عالماً بحالته فهو نوع من المناجاة والتضرع وإظهار الضعف .

جملة {إني أسكنت من ذريتي} مستأنفة لابتداء دعاء آخر. وافتتحت بالنداء لزيادة التضرع. وفي كون النداء تأكيداً لنداء سابق ضرب من الربط بين الجمل المفتتحة بالنداء ربط المثل بمثله. [١]

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٧٨- ٣٧٩ .
(٢) التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٣٣ .
(٣)المرجع السابق ج ١٣ ص ٢٣٤ .

وهناك فوائد جمة في تكرار النداء ، وسر بلاغي في الإتيان بضمير جماعة المتكلمين، قال صاحب البحر : « كرر النداء رغبة في الإجابة وإظهاراً للتذلل، والالتجاء إلى الله - تعالى. وأتى بضمير جماعة المتكلمين ، لأنه تقدم ذكره. وذكر بنيه في قوله: (واجنبني وبنى، »[٢]

وأبو السعود له رأي آخر في الإسناد إلى ضمير الجمع حيث يقول : « آثر عليه السلام ضمير الجماعةِ لا لما قيل من تقدم ذكره وذكر بنيه و إلا لراعاه في قوله: (ربِّ إنهن) الخ، لأن الدعاء المصدّرَ به وما أورده بصدد تمهيدِ مباديء إجابتهِ من قوله: {إِنَّى أَسْكَنتُ} الآية، متعلقٌ بذريته فالتعرضُ لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخلُ في القبول وإجابةِ المسؤول »[٣]

ولا يوجد ما يمنع من تحقق الغرضين معاً وهذا من أسرار بلاغة القرآن عند عدم احتمال التعارض ، وهنا لا يوجد أي تعارض بين الرأيين .

وقال صاحب التحرير والتنوير : وأضيف الرب هنا إلى ضمير الجمع خلافاً لسابقيه لأن الدعاء الذي افتتح به فيه حظ للداعي ولأبنائه. ولعل إسماعيل ـــ عليه السلام ـــ حاضر معه حين الدعاء كما تدل له الآية الأخرى {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم} إلى قوله{ واجعلنا مسلمين لك } (سورة البقرة: ١٢٧). وذلك من معنى الشكر المسؤول هنا. [٤]

ثم أظهر أدبه مع ربه عندما قال { أسكنت } فأسند الإسكان إلى نفسه ، وعبر به مع عدم وجود مقوماته إظهاراً لشدة رغبته في تحقق مطلبه.

وأتى بـ{ من } التبعيضية ، لأن سارة وإسحاقاً لم يذهبا معه إلى مكة ، وأضاف الذرية إلى نفسه إظهاراً لعطف الأبوة وحنان الزوج خاصة أنه مناط القدوة ومحل الأسوة

و(مِن} في قوله: {من ذريتي} بمعنى بعض، يعني إسماعيل ـــ عليه السلام ـــ، وهو بعض ذريته، فكأن هذا الدعاء صدر من إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ بعد زمان من بناء الكعبة وتقري مكة، كما دل عليه قوله في دعائه هذا {الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق (سورة إبراهيم: ٣٩)، فذكر إسحاق عليه السلام . [٥]

---

(١)التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٤٠ .
٢ - البحر المحيط ج٦ ص ٤٤٦
٣ - تفسير أبي السعودج ٥ ص ٥١
٤)- التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٤٠ .
(٥)- التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٤٠ .

والوادي: الأرض بين الجبال، وهو وادي مكة. وغير ذي زرع} صفة، أي بواد لا يصلح للنبت لأنه حجارة، فإن كلمة {ذُو} تدلّ على صَاحب ما أضيفت إليه وتمكنه منه، فإذا قيل: ذو مال، فالمال ثابت له، وإذا أريد ضد ذلك قيل غير ذي كذا، كقوله تعالى: {قرآناً عربياً غير ذي عوج (سورة الزمر: ٢٨)، أي لا يعتريه شيء من العوج. ولأجل هذا الاستعمال لم يقل بواد لا يزرع أولا زرع به. (١)

وفي قوله { غير ذي زرع } إيجاز لأنه يلزم منه عدم وجود الماء الذي عليه قوام الحياة .

وقوله { عند بيتك المحرم }يفهم منه تحديد المكان ، وأنه جدير بالعمارة ، وأضاف البيت إلى ضميره – تعالى – ليدل على تشريفه وتعظيمه ، وقوله { المحرم } زيادة في الوصف والبيان .

وقيل للبيت، المحرم، لأنّ الله حرم التعرض له والتهاون به ، وجعل ما حوله حرما لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنعاً عزيزاً يهابه كل جبار، كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها ، أو لأنه حرّم على الطوفان أي منع منه، كما سُمي عتيقاً لأنه أعتق منه فلم يستول عليه {لِيُقِيمُوا الصَّلوٰةَ } اللام متعلقة بأسكنت، أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتزق، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعدين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله، مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك (٢)

ومن مواطن الإيجاز في الآية حذف حرف النداء { رب } و { ربنا } للعلم به ، وقوله { ليقيموا الصلاة } تعليل لقوله { أسكنت } أو تعليل لقوله { وارزقهم من الثمرات } ولا مانع من أن يكون التعليل لهما معاً ، لأن السكن وحده غير كاف في الاستمرار في إقامة الصلاة ، بل لابد من الرزق من الثمرات الذي هو علة لإقامة الصلاة وعلة لشكر الله – تعالى –

قوله تعالى { ربنا ليقيموا الصلاة} في متعلق هذه اللام قولان أحدهما أنها تتعلق بقوله { واجنبني وبني أن نعبد الأصنام} فالمعنى جنبهم الأصنام ليقيموا الصلاة ،هذا قول مقاتل

---

(١) -التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٤١ .
(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ٣٨٠ .

. والثاني أنها تتعلق بقوله{ أسكنت } فالمعنى أسكنتهم عند بيتك ليقيموا الصلاة لأن بيتك قبلة الصلوات ذكره الماوردي . (١)

ومن مواطن الإيجاز « : أن هذا الدعاء جامع للدين والدنيا. أما الدين فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى الذهاب إلى تلك البلدة بسبب النسك والطاعة لله تعالى. وأما الدنيا: فلأنه يدخل فيه ميل الناسإلى نقل المعاشات إليهم بسبب التجارات، فلأجل هذا الميل يتسع عيشهم، ويكثر طعامهم ولباسهم » (٢)

ولماذا قال { من الثمرات } ولم يقل ارزقهم الثمرات : لأن ما جاء علي النظم فيه أدب من الداعي ، وفيه إظهار لعدم حرصه على زيادة الرفاهية وزيادة التنعم ، والاكتفاء بما يعين على الطاعة.

وذيل الآية بقوله { لعلهم يشكرون } لـ« يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات، فإن إبراهيم - عليه السلام - بين أنه إنما طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلوات وأداء الواجبات. » (٣)

والآية الكريمة بهذا تدل على منزلة الصلاة وأهميتها في الإسلام فكانت هي المطلب الأوحد ، وما اكتنفها من أدعية وتضرعات فإنما هي من أجلها .

قوله تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) (البينة:٥)

وسورة البينة من السور المدنية على الأرجح وذلك لما اشتملت عليه من الأساليب التقريرية ، وللحديث عن أهل الكتاب ، وإقامة الحجة عليهم ، وبدأت الآية الكريمة التي نحن بصددها بأسلوب القصر المفيد لإنكارهم ، أو شكهم في إفراد الله بالعبادة .

وأهل الشرك وأهل الكتاب ليسوا أهلا لتوجيه الخطاب إليهم لأفعالهم الشنيعة التي ذكرها القرآن في كثير من آياته ، حتى الفعل المستخدم في هذه الآية جاء فعلاً ماضياً مبنياً للمجهول كي لا يذكر فاعله ، فلم يقل الله –تعالى أمرتهم أو أمرناهم ، وهذا هو الفرق بين مخاطبة أهل الشرك ومخاطبة أهل الإيمان ، فمخاطبة أهل الإيمان تشتمل على القرب والمؤانسة أما أهل الشرك ومن سار دربهم من أهل الكتاب فمخاطبتهم تأتي بضمير الغيبة

---

(١) زاد المسير ج: ٤ ص: ٣٦٧
(2)تفسير الرازي ج ١٩ ص ١٠٧
١-
(٣)- تفسير الرازي ج ١٩ ص ١٠٧

غالباً ، ومعلوم ما لهذه الطريقة من سر عجيب في رفع معنويات أهل الإيمان ، وانخفاض معنويات مناوئيهم .

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله) ، في محل نصب على الحال مفيدة لتقريعهم وتوبيخهم بما فعلوا من التفرق بعد مجيء البينة ، أي والحال أنهم ما أمروا في كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله ويوحدوه ، حال كونهم مخلصين له الدين ، أي جاعلين دينهم خالصا له سبحانه ،أو جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين ، وقيل إن اللام في ليعبدوا بمعنى (أن) أي ما أمروا إلا بأن يعبدوا ، كقوله (يريد الله ليبين لكم) أي أن تبين، و (يريدون ليطفئوا نور الله) أي : أن يطفئوا ، قرأ الجمهور (مخلصين) بكسر اللام ، وقرأ الحسن بفتحها ، وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية في العبادات ، لأن الإخلاص من عمل القلب .[1]

والأمر الذي يحتاج إلى تجدد أتى قيه بالجملة الفعلية فقال { ليعبدوا } وفي الأمر الذي يحتاج إلى ثبوت ودوام أتى فيه بالجملة الاسمية ، فقال : { مخلصين له الدين } فالإخلاص في العبادة ومصاحبة النية لها يحتاج إلى ثبوت ودوام ، وكون الدين لله وحده كذلك وتقديم الجار والمجرور في قوله { له الدين } لإفادة الاختصاص.

يقول الرازي عن سبب بناء الفعل للمجهول « قوله: {أُمِرُواْ } مذكور بلفظ ما لم يسم فاعله وهو: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصّيَامُ } {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ } قالوا.....: كأنه تعالى يقول العبادة شاقة ولا أريد مشقتك إرادة أصلية بل إرادتي لعبادتك كإرادة الوالدة لحجامتك، ولهذا لما آل الأمر إلى الرحمة قال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ }، {كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمانَ } وذكر في الواقعات إذا أراد الأب من ابنه عملاً يقول له أولاً: ينبغي أن تفعل هذا ولا يأمره صريحاً، لأنه ربما يرد عليه فتعظم جنايته ، فههنا أيضاً لم يصرح بالأمر لتخف جناية الراد» [2]

وقال صاحب التحرير والتنوير « والتعبير بالفعل المسند للمجهول مفيد معنيين ، أي ما أمروا في كتابهم إلا بما جاء به الإسلام. فالمعنى: وما أمروا في التوراة والإنجيل إلا أن يعبدوا الله مخلصين إلى آخره. فإن التوراة أكدت على اليهود تجنب عبادة الأصنام ، وأمرت بالصلاة، وأمرت بالزكاة أمراً مؤكداً مكرراً. وتلك هي أصول دين الإسلام قبل أن يفرض صَوم رمضان والحج ، والإنجيل لم يخالف التوراة ، أو المعنى وما أمروا في

---

(١) - فتح القدير ج: ٥ ص: ٤٧٦

٢ - تفسير الرازي ج ٣٢ ص ٢٥٢ .

الإسلام إلا بمثل ما أمرهم به كتابهم ، فلا معذرة لهم في الإعراض عن الإسلام على كلا التقديرين. ونائب فاعل {أمروا} محذوف للعموم ،أي ما أمروا بشيء إلا بأن يعبدوا الله.»[١]

وكان من أهل الكتاب من هو متحنف متأثر بالقرآن وبلاغته وقوة تأثيره وظهر هذا جلياً في شعرهم ونثرهم .

وفي مناهل العرفان « أنه كان يوجد بين العرب حنفاء من مقاويل الخطباء وفحول الشعراء كأمية بن أبي الصلت وقس بن ساعدة فما كان هذا ليثير حفائظهم ولا ليقفهم موقف الخصومة منهم ، بل رضوا بتحنفهم ومخالفتهم لدينهم ودين آبائهم ، وزادوا على ذلك أن سجلوا كلامهم في التوحيد، وشعرهم في التنزيه والتمجيد لأنهم لم يجدوا في هذا المنظوم والمنثور مثل ما وجدوا في القرآن من شدة التأثير وقوة الدفع ذلك الكتاب الذي جاءهم من فوقهم ، وكان له شأن غير شأنهم ، ورأوا فيه من مسحة الألوهية ما جعله روحا من أمر الله يتحرك به كل من سمع صوته ، ويهتز له كل من شام برقه ولا سبيل إلى وقف تياره وأثره إلا بالوقوف في وجهه والحيلولة بين الناس وبينه » [٢]

ثم بين أنهم من جملة ما أمروا به إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإن كانتا من جملة ما أمروا به عند الأمر بالعبادة وذلك ليدل على رفعة شأنهما وعلو منزلتهما وكثرة فوائدهما ، وأعتبره من ذكر الخاص بعد العام ، وهذا لا يتعارض مع القول بأن العبادة هي الإيمان ، ولا يفهم من هذا أنهم تركوا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وإنما يفهم منه أنهم فرطوا في المحافظة والمداومة عليهما ، والفعل المضارع يقرب من هذا الفهم ويشير إليه ، وكلام صاحب فتح القدير يشير إلى هذا .

(ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) أي يفعلوا الصلوات في أوقاتها ويعطوا الزكاة عند محلها ، وخص الصلاة والزكاة لأنهما من أعظم أركان الدين ، قيل إن أريد بالصلاة والزكاة ما في شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة فالأمر ظاهر ، وإن أريد ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا ، وهما من جملة ما وقع الأمر به فيها [٣]

والقيمة نعت لموصوف محذوف أو يقال دين الأمة القيمة بالحق أي القائمة بالحق وفي حرف عبد الله وذلك الدين القيم ، قال الخليل : القيمة جمع القيم والقيم والقائم واحد، وقال

---

١ - التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ٤٨ .
(٢) - مناهل العرفان ج: ٢ ص: ٣٠٤
(٣) فتح القدير ج: ٥ ص: ٤٧٦

الفراء أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته لاختلاف اللفظين ، وعنه أيضا هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة ، وقيل الهاء راجعة إلى الملة أو الشريعة ، وقال محمد بن الأشعث الطالقاني : القيمة ها هنا الكتب التي جرى ذكرها والدين مضاف إليها [١]

وذلك إشارة إلى ما ذكر من عبادة الله تعالى وبالإخلاص وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته [٢]

وجاءت إقامة الصلاة لتكون من صميم الإيمان وعمدة العبادات التي تحتاج إلى إخلاص النية لله رب العالمين

أقيموا الصلاة

وهذه صيغة الأمر بفعل الأمر والدال على ذلك بالوضع اللغوي ، ولا ريب أن الأمر بإقامة الصلاة بهذه الصيغة أتى في مواضع من كتاب الله لا بديل عنها ، ولا يؤدي غيرها مؤداها ، فلا يصلح التعبير بالفعل المضارع المقترن بلام الأمر ، ولا الفعل المضارع المفيد للاستمرار ، ولا الفعل الماضي الذي قصد به المضي ، أو الذي يرد بمعنى الحال وهذا يدل على دقة القرآن الكريم في اختياراته في نظمه ، ففعل الأمر بهذه الصيغة ، يدل على حاجة المقام لهذا القدر من المواجهة ، والقرب والحضور ، وكل ذلك يحمل المأمور على سرعة الاستجابة والامتثال لمراد الله – تعالى –

وقال صاحب المثل السائر: « وكذلك يرجع عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر،إلا أنه ليس كالأول ، بل إنما يفعل ذلك توكيدا لما أجري عليه فعل الأمر، لمكان العناية بتحقيقه كقوله تعالى (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) الآية وكان تقدير الكلام أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر ، للعناية بتوكيده في نفوسهم ، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية ، ولهذا قال النبي الأعمال بالنيات ، واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان

---

(١) تفسير القرطبي ج: ٢٠ ص: ١٤٤ -- تفسير القرطبي --اسم المؤلف :: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله-- وفاة المؤلف :: ٦٧١-- دار النشر :: دار الشعب-- مدينة النشر :: القاهرة-- سنة النشر :: ١٣٧٢ -- رقم الطبعة :: الثانيةعدد الأجزاء :: ٢٠-- اسم المحقق :: أحمد عبد العليم البردوني

(3) تفسير أبي السعود ج: ٩ ص: ١٨

أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع عل أسرارهما وفتش عن دفائنهما ولا تجد ذلك في كل كلام فإنه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهما وأغمضها طريقا » [١]

ومن ذلك قوله تعالى : (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) (البقرة:٤٣)

الخطاب في الآية الكريمة موجه إلى بني إسرائيل لأنه جاء تتمة لخطابات وردت في الآيات التي قبل هذه الآية (يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) (البقرة:٤٠) (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ) (البقرة:٤١) (وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة:٤٢)

ناداهم الله – تعالى – تنبيهاً لهم من غفلتهم ، ثم أمرهم في البداية بتذكر نعمته ، وكرر لهم هذا في ثلاثة مواضع من سورة البقرة [٢] --- أي أنها متقاربة – والغرض من تذكر النعمة ، هو الحمل على الاتباع ، والاستجابة لما سيأتي بعده من أوامر ، وأتى بها عامة لتشمل كل ما أنعم به عليهم ، وأضافها تعالى إلى نفسه إضافة تعظيم وتفخيم ، وليعلموا أن مصدر هذه النعمة هو الله وحده ، ولا دخل لأحد منهم فيها ، فهو أهل لأن يطاع وأهل لأن يعبد ويشكر ، ثم عرفها بالموصول ، زيادة في التقرير والتأكيد ، ولم يكتف بقوله { نعمتي} فقال – تعالى – { أنعمت عليكم }للتنصيص وإقامة الحجة عليهم .

وتقييد النعمة بهم لأن الإنسان غيور حسود بالطبع فإذا نظر إلى ما أنعم الله على غيره حمله

الغيرة والحسد على الكفران والسخط وإن نظر إلى ما أنعم الله به عليه حمله حب النعمة على الرضى والشكر، وقيل أراد بها ما أنعم الله به على آبائهم من الإنجاء من فرعون والغرق ومن العفو عن اتخاذ العجل وعليهم من إدراك زمن محمد صلى الله عليه وسلم [٣]

---

(١) المثل السائر ج: ٢ ص: ١٢ المؤلف ضياء الدين بن الأثير - تحقيق / د أحمد الحوفي ، ود / بدوي طبانة - دار الرفاعي بالرياض - طبعة ثانية

(٢) الآيات ٤٠ – ٤٧ – ١٢٢

(٣) تفسير البيضاوي ج: ١ ص: ٣٠٨

ثم أمرهم بالوفاء بالعهد ليكون ذلك شرطاً لوفاء الله بعهدهم ، ، وأضاف العهد إلى نفسه تعظيماً له وتخويفاً من مغبة عدم الوفاء بعهد الله –تعالى - ، وأسند الوفاء إلى نفسه حتى يطمئنوا ، وأضاف العهد إليهم زيادة في البيان والتوضيح ، ثم ذيل الآية بقوله { وإياي فارهبون }ليكن بذلك قد أمرهم بتذكر نعمته ، وأمرهم بالوفاء بالعهد ، وأمرهم بخشيته ورهبته ، وهذه الأوامر غاية في الترتيب، فنعمه –تعالى – تدعو إلى الوفاء بعهده ، وكلاهما يحمل العبد على خشيتة بتجنب معاصيه .

وتفصيل العهدين في سورة المائدة في قوله تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل) إلى قوله (ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار) وقرىء (أوف) بالتشديد للمبالغة[١]

وقدم المفعول على الفعل ، تعظيماً له –تعالى – وتخويفاً لهم من غضبه وعقابه .

« (فارهبون) خافون ، وإنما حذفت الياء لأنها في رأس آية ورءوس الآي ينوى الوقف عليها، والوقف على الياء يستثقل فاستغنوا عنها بالكسرة »[٢] « وهو آكد في إفادة التخصيص من إياك نعبد لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول ، والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل إن كنتم راهبين شيئا فارهبون، والرهبة خوف مع تحرز، والآية متضمنة للوعد والوعيد ، دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد ، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحدا إلا الله تعالى »[٣]

ثم أمرهم بالإيمان بالنبي مجمد – صلى الله عليه وسلم -، ونهاهم عن الكفر به ، وليس المقصود أول كافر به ، جواز أن يكونوا آخر كافر به وإنما ذكر الأول لأنه أشنع وأقبح « وقيل المعنى وآخر كافر به فحذف المعطوف لدلالة قوة الكلام من جهة أن أول الكفر وآخره سواء وخصت الأولوية بالذكر لقبحها بالابتداء » [٤]

عرض بقوله (ولا تكونوا أول كافر به) بأن الواجب أن يكونوا أول من آمن به ، ولأنهم كانوا أهل النظر في معجزاته والعلم بشأنه والمستفتحين به والمبشرين بزمانه ، (وأول كافر به) وقع خبرا عن ضمير الجمع بتقدير أول فريق [٥]

---

(١) تفسير البيضاوي ج: ١ ص: ٣٠٩
(٢) التبيان في تفسير غريب القرآن ج: ١ ص: ٨٠
(٣) تفسير البيضاوي ج: ١ ص: ٣١٠
(٤) البرهان في علوم القرآن ج: ٣ ص: ١٢١
(٥) تفسير البيضاوي ج: ١ ص: ٣١١

ولماذا ختم الآية الأولى بقوله { فارهبون } وختم الثانية بقوله { فاتقون } أجاب عن ذلك البيضاوي بقوله : « ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمباديء لما في الآية الثانية فصلت بالرهبة التي هي مبدأ السلوك ، والخطاب بالثانية لما خص أهل العلم أمرهم بالتقوى التي هي منتهاه » [١]

ثم نهاهم عن لبس الحق بالباطل ، وكتمان الحق ، وكلاهما أشنع من الآخر قال أبو السعود : « وفيه إشعار بأن استقباح اللبس لما يصحبه من كتمان الحق ، وتكرير الحق إما لأن المراد بالأخير ليس عين الأول بل هو نعت النبي الذي كتموه وكتبوا مكانه غيره كما سيجيء في قوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) ، وإما لزيادة تقبيح المنهى عنه إذ في التصريح باسم الحق ما ليس في ضميره » [٢]

والصلاة بدون تحقق تلك الأوامر والنواهي لا ثمرة لها ، ولذالك بعد ما أمرهم ونهاهم جاء الأمر بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ليتحقق الغرض المرجو منهما . والمقصود بالصلاة والزكاة صلاة المسلمسن وزكاتهم لأنهم أمروا بالإيمان بمحمد –صلى الله عليه وسلم – قال البيضاوي « الزكاة يعني صلاة المسلمين وزكاتهم فإن غيرهما كلا صلاة ولا زكاة أمرهم بفروع الإسلام بعد ما أمرهم بأصوله ، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بها، والزكاة من زكا الزرع إذا نما فإن أخراجها يستجلب بركة في المال ويثمر للنفس فضيلة الكرم أو من **الزكاة** بمعنى الطهارة ، فإنها تطهر المال من الخبث والنفس من البخل»[٣]

ولماذا عبر عن الصلاة بالركوع قال البيضاوي « وعبر عن الصلاة بالركوع احترازا عن صلاة اليهود ، وقيل الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع ... » [٤]

وقوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) (البقرة:٨٣)

أعيد ذكر أحوال بني إسرائيل بعد ذلك الاستطراد المتفنن فيه، فأعيد الأسلوب القديم وهو العطف بإعادة لفظ (إذ) في أول القصص. وأظهر هنا لفظ {بني إسرائيل} وعدل عن

---

(1) تفسير البيضاوي ج: ١ ص: ٣١٢
(٢) تفسير أبي السعود ج: ١ ص: ٩٦
(٣) تفسير البيضاوي ج: ١ ص: ٣١٤
(٤) تفسير البيضاوي ج: ١ ص: ٣١٤

الأسلوب السابق الواقع فيه التعبير بضمير الخطاب المراد به سلف المخاطبين وخلفهم لوجهين: أحدهما أن هذا رجوع إلى مجادلة بني إسرائيل وتوقيفهم على مساويهم فهو افتتاح ثان جرى على أسلوب الافتتاح الواقع في قوله تعالى: {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعدكم}(البقرة: ٤٠) الآية. ثانيهما: أن ما سيذكر هنا لما كان من الأحوال التي اتصف بها السلف والخلف وكان المقصود الأول منه إثبات سوء صنيع الموجودين في زمن القرآن تعين أن يعبر عن سلفهم باللفظ الصريح ليتأتى توجيه الخطاب من بعد ذلك إلى المخاطبين حتى **لا** يظن أنه من الخطاب الذي أريد به أسلافهم على وزان {وإذ نجيناكم من آل فرعون}(البقرة: ٤٩) أو على وزان {ثم اتخذتم العجل من بعده}(البقرة: ٥١). [١]

وكلمة إذ نصب بإضمار فعل خوطب به النبي والمؤمنون ليؤديهم التأمل في أحوالهم إلى قطع الطمع عن إيمانهم ، أو اليهود الموجودون في عهد النبوة توبيخا لهم بسوء صنيع أسلافهم ، أي أذكروا إذ أخذنا ميثاقهم [٢]

والتعبير بالأخذ في الأمور المعنوية يدل على تجسيدها وأهميتها ، وأسند سبحانه الأخذ إلى نفسه ليكون أبلغ في الزجر وإقامة الحجة ، وقال (أخذنا } بضمير الجمع تعظيماً لذاته ، فمن ثبتت له العظمة والقدرة جدير بأن يعبد ولا يشرك به شيئاً ، وكذلك عنادهم وصلفهم ونقضهم للميثاق الذي هو كائن في علمه – تعالى - قبل أن يكون يحتاج إلى القدرة والعظمة .

قوله {لا تعبدون إلا الله } إخبار في معنى النهي كقوله تعال (ولا يضار كاتب ولا شهيد) وهو أبلغ من صريح النهي ، لما فيه من إيهام أن المنهي سارع إلى الانتهاء ، فهو يخبر عنه ويعضده قراءة لا تعبدو[٣]

وقال صاحب التحرير والتنوير: خبر في معنى الأمر ومجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر لأن الخبر مستعمل في غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله بالشيء الحاصل حتى إنه يخبر عنه. وجملة {لا تعبدون} مبدأ للميثاق فلذلك فصلت

---

(١) التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٨٢ .
(2) تفسير أبي السعود ج: ١ ص: ١٢٣
(٣) تفسير البيضاوي ج: ١ ص: ٣٥٢

وعطف ما بعدها عليها ليكون مشاركاً لها في معنى البيانية سواء قَدَّرْت أنْ أو لم تقدِّرْها، أو قدَّرت قولاً محذوفاً.[١]

وجوز أبو حيان أن تكون جملة { لا تعبدون } تفسيرية لا محل لها من الإعراب فقال : « الوجه الثامن: أن تكون الجملة تفسيرية ، فلا موضع لها من الإعراب ، وذلك أنه لما ذكر أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل ، كان في ذلك إبهام للميثاق ما هو، فأتى بهذه الجملة مفسرة للميثاق، .[٢]

ولا ريب أن القراآت لها أثر كبير وواضح في إثراء المعني فقوله { تعبدون } وردت فيه قراءتان إحداهما بالتاء { تعبدون } والأخرى بالياء { يعبدون } وذكر صاحب البحر توجيهاً لهاتين القراءتين من حيث المعنى فقال « فمن قرأ بالياء، فلأن بني إسرائيل لفظ غيبة، ومن قرأ بالتاء، فهو التفات، وحكمته الإقبال عليهم بالخطاب، ليكون أدعى للقبول، وأقرب للامتثال، إذ فيه الإقبال من الله على المخاطب بالخطاب. ومع جعل الجملة مفسرة ، لا تخرج عن أن يكون نفي أريد به نهي، إذ تبعد حقيقة الخبر فيه. »[٣]

وقوله { إلا الله } قيه وضع للظاهر موضع الضمير والغرض من ذلك تربية المهابة قي نفوس المخاطبين وحمل لهم على العمل بما في الميثاق ، هذا هو المفهوم من لفظ الجلالة حيث فيه ما ليس في الضمير ، وجعله صاحب البحر من باب الالتفات ، وذكر أغراضاً لذلك فقال « إلا الله: استثناء مفرّغ، لأن لا تعبدون لم يأخذ مفعوله، وفيه التفات. إذ خرج من ضمير المتكلم إلى الاسم الغائب. ألا ترى أنه لو جرى على نسق واحد لكان نظم الكلام لا تعبدون إلا إيانا؟ لكن في العدول إلى الاسم الظاهر من الفخامة، والدلالة على سائر الصفات، والتفرّد بالتسمية به ، ما ليس في المضمر، ولأن ما جاء بعده من الأسماء ، إنما هي أسماء ظاهرة ، فناسب مجاورة الظاهر الظاهر.[٤]

وجعل الإحسان لسائر الناس بالقول لأنه القدر الذي يمكن معاملة جميع الناس به ، وذلك أن أصل القول أن يكون عن اعتقاد، فهم إذا قالوا للناس حسناً فقد أضمروا لهم خيراً، وذلك أصل حسن المعاملة مع الخلق قال النبي - صلى الله عليه وسلم - «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».[٥]

---

(١) التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٨٢ .
(٢) البحر المحيط ج ١ ص ٤٥٧ .
(٣) البحر المحيط ج ١ ص ٤٥٧ .
(٤) البحر المحيط ج ١ص ٤٥٧ .
(٥) التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٨٣ .

على أن الله أمر بالإحسان الفعلي حيث يتعين ويدخل تحت قدرة المأمور، وذلك الإحسان للوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين وإيتاء الزكاة ، ، وأمر بالإحسان القولي إذا تعذر الفعلي على حد قول أبي الطيب:

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال [١]

ومن الميثاق إقامة الصلاة ، وهذا يدل على أهميتها ومنزلتها ، ويدل على تفريط بني إسرائيل في شأنها ، وعدم إقامتها كما ينبغي ، ولكن لماذا تأخر ذكر إقامة الصلاة بعد تلك الأوامر التي نص عليها في الميثاق ؟ أقول والله أعلم إن بني إسرائيل كان تفريطهم فيما ذكر قبل الصلاة هو أكثر من تفريطهم في الصلاة ، فالإشراك في العبادة من أشنع وأفظع ما يكون ، ولا تستقيم معه صلاة ولا غيرها من العبادات لذلك بدأ به ، ويبدو أن إحسانهم للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين كان منعدماً ، وكذلك الإغلاظ في القول ، وجفاؤهم لسائر الناس ، فلا أثر للصلاة في تقويم سلوكهم وتغيير جرائمهم ، فصلاتهم كلا صلاة ، لذلك أمرهم بإقامتها .

أطلقت الزكاة فيه على الصدقة مطلقاً ، أو على الصدقة واجبة على المعاتيق تابعة لبيان الميثاق وهو عهد موسى عليه السلام.)[٢](

{ثم توليتم إلا قليلاً منكم} خطاب للحاضرين وليس بالتفات كما علمت آنفاً. ، والمعنى أخذنا ميثاق الأمة الإسرائيلية على التوحيد وأصول الإحسان ، فكنتم ممن تولى عن ذلك وعصيتم شرعاً اتبعتموه.[٣]

وجاء بالجملة الاسمية في قوله وأنتم معرضون } لإفادة الدوام والثبوت، فالتولي صفة ثابتة ، وكذلك الإعراض ، قال صاحب البحر وأسلوب المواجهة فيه تقبيح بسبب التولي والإعراض **:** « وجاءت الجملة الحالية اسمية مصدرة بأنتم، لأنها آكد. وكان الخبر اسماً، لأنه أدل على الثبوت، فكأنه قيل: وأنتم عادتكم الإعراض عن الحق والتولية عنه. وفي المواجهة بأنتم تقبيح لفعلهم وكونهم ارتكبوا ذلك الفعل القبيح الذي من شأنه أن لا يقع، كقولك: يحسن إليك زيد وأنت مسيء إليه، فكان المعنى: **أن** من واثقه الله وأخذ عليه العهد

---

(١) التحرير والتنوير ج ١ ص٥٨٣ .
(٢) التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٨٣ .
(٣) التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٨٤ .

في أشياء بها انتظام دينه ودنياه، جدير أن يثبت على العهد، وأن لا ينقضه، ولا يعرض عنه. »[١]

والتولي يفيد الانصراف مع الكره والبغض أما الانصراف فقد يكون مع البغض ، أو مع غير البغض ، فقد ينصرف الشخص عن شيء وهو محب له ، وأسند التولي إليهم حتى لا يحتجوا بأن صارفاً صرفهم عن الميثاق .

والتولي الإعراض وإبطال ما التزموه ، وحذف متعلقه لدلالة ما تقدم عليه ، أي توليتم عن جميع ما أخذ عليكم الميثاق به أي أشركتم بالله وعبدتم الأصنام وعققتم الوالدين وأسأتم لذوي القربى واليتامى والمساكين وقلتم للناس أفحش القول وتركتم الصلاة ومنعتم الزكاة.[٢]

وجعله أبو السعود من باب الالتفات فقال «(توليتم) إن جعل ناصب الظرف خطابا للنبي والمؤمنين فهذا التفات إلى خطاب بنى أسرائيل جميعا بتغليب أخلافهم على أسلافهم لجريان ذكر كلهم حينئذ على نهج الغيبة ، فإن الخطابات السابقة لأسلافهم محكية داخلة في حيز القول المقدر قبل لا تعبدون ، كأنهم استحضروا عند ذكر جناياتهم ، وإن جعل خطابا لليهود المعاصرين للرسول الله والمؤمنين فهذا تعميم للخطاب ، بتنزيل الاسلاف منزلة الأخلاف كما أنه تعميم للتولى بتنزيل
الأخلاف منزلة الأسلاف للتشديد في التوبيخ أي اعرضتم عن المضى على مقتضي الميثاق ورفضتموه »[٣]

والحكمة من التعبير ب(ثم} عدم صدور هذا الحكم عليهم إلا بعد مضي زمن من أخذ الميثاق ، وهذا يقطع تحججهم بعدم إعطاء وقت كاف للتفكير في أمر الالتزام بهذا الميثاق .، قال صاحب التحرير والتنوير« و(ثم) للترتيبين الترتبي والخارجي. [٤] وقال الألوسي « و ثم للاستبعاد أو لحقيقة التراخي فيكون توبيخا لهم بالارتداد بعد الانقياد مدة مديدة ، وهو أشنع من العصيان من الأول »[٥]

---

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٤٦٤ .
(٢) التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٨٤ .
(٣) تفسير أبي السعود ج: ١ ص: ١٢٣
(٤) التحرير والتنوير ج ١ص ٤٨٤ .
(٥) روح المعاني ج: ١ ص: ٣٠٩

وقوله: {إلا قليلاً منكم} إنصاف لهم في توبيخهم ومذمتهم وإعلان بفضل من حافظ على العهد. [١]

وقوله تعالى : (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (البقرة:١١٠)

في الآية الكريمة يخاطب الله أهل الإيمان بصيغة الأمر ، صيانة لهم عن تأثير أهل الكتاب في نقاء إيمانهم وطهارة قلوبهم ، { وأقيموا الصلاة } أي استمروا على المحافظة عليها ، واستمروا على جعلها حصناً حصيناً لعقيدتكم وإسلامكم ، فالكثير من أهل الكتاب لا يريدون ولا يحبون بل يودون ارتدادكم عن الدين و وانضمامكم إلى ملة الكفر والذي حملهم على هذا الحقد والحسد الذي نص القرآن على انه نابع من نفوسهم ، أي لم يجبروا عليه ولم يؤمروا به ، ونهاهم القرآن أن يصنعوا صنيع قوم موسى مع نبيهم فيما سألوه وطلبوا منه ما ليس في وسعه ، وجاء بصيغة الاستفهام التي أراد بها النهي ، وهي أقوى وأبلغ من النهي المباشر ، لأنها تحمل الاستفهام والنهي معاً { أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل } وليس هناك ضلال أفظع من الكفر بعد الإيمان { ومن يتبدل الكفر بعد الإيمان فقد ضل سواء السبيل } .

وبعد هذه التنبيهات المشددة من العليم الخبير جاء الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والغرض من ذلك هو الاستمرار .

لما أمر بالعفو والصفح، أمر بالمواظبة على عمودي الإسلام: العبادة البدنية، والعبادة المالية ، إذ الصلاة فيها مناجاة الله تعالى والتلذذ بالوقوف بين يديه ، والزكاة فيها الإحسان إلى الخلق بالإيثار على النفس ، فأمروا بالوقوف بين يدي الحق وبالإحسان إلى الخلق. قال الطبري: إنما أمر الله هنا بالصلاة والزكاة ليحط ما تقدم [٢]

ثم طمأنهم أن ما يقدمونه من الخيرات ثوابه محفوظ عند الله « وإنما أمرهم جل ثناؤه في هذا الموضع بما أمرهم به من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتقديم الخيرات لأنفسم ليطهروا بذلك من الخطأ الذي سلف منهم في استنصاحهم اليهود ، وركون من كان ركن منهم إليهم ، وجفاء من كان جفا منهم في خطابه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله راعنا ، إذ

---

(١)التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٨٤ .
(٢) البحر المحيط ج ١ ص ٥٥٩ . – ٥٦٠ .

كانت إقامة الصلوات كفارة للذنوب ، وإيتاء الزكاة تطهيرا للنفوس والأبدان من أدناس الآثام » [١]

واعتبر الألوسي كون الغرض من الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليحبط ما تقدم من ميلهم إلى قول اليهود { راعنا } منحط عن درجة الاعتبار ، وذكر غرضاً آخر لذلك « سبحانه أمرهم بالمخالفة والالتجاء إليه تعالى بالعبادة البدنية والمالية لأنها تدفع عنهم ما يكرهون وقول الطبري إنهم أمروا هنا بالصلاة والزكاة ليحبط ما تقدم من ميلهم إلى قول اليهود راعنا منحط عن درجة الاعتبار » [٢] وقيل « أريد به الأمر بالثبات على الإسلام ، فإن الصلاة والزكاة ركناه ، فالأمر بهما يستلزم الأمر بالدوام على ما أنتم عليه على طريق الكناية. »[٣] وقال صاحب البحر عن كلام الطبري «. وليس له ذلك الظهور. »[٤]

ولا يوجد ما يمنع من احتمال كل الأغراض التي ذكرها أهل التفسير من الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهذا من صميم بلاغة كلام الله المعجز . وأستبعد ما قاله الألوسي و صاحب البحر عن كلام الطبري .

ثم طمأنهم أن ثواب ما يقدمونه من الخيرات محفوظ عند الله قال الطبري « يعني جل ثناؤه بذلك ومهما تعملوا من عمل صالح في أيام حياتكم فتقدموه قبل وفاتكم ذخرا لأنفسكم في معادكم تجدوا ثوابه عند ربكم يوم القيامة فيجازيكم به، والخير هو العمل الذي يرضاه الله ، وإنما قال تجدوه والمعنى تجدوا ثوابه ، كما حدثت عن عمار بن الحسن قال ثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع قوله تجدوه يعني تجدوا ثوابه عند الله قال أبو جعفر لاستغناء سامعي ذلك بدليل ظاهر على معنى المراد منه كما قال عمر بن لجأ

وسبحت المدينة لا تلمها رأت قمرا بسوقهم نهارا

وإنما أراد وسبح أهل المدينة » [٥]

---

(١) تفسير الطبري ج: ١ ص: ٤٩١ -- تفسير الطبري -- اسم المؤلف :: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر-- ولادة المؤلف :: ٢٢٤-- وفاة المؤلف :: ٣١٠-- دار النشر :: دار الفكر-- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٤٠٥

(٢) روح المعاني ج: ١ ص: ٣٥٨

(٣) التحرير والتنوير ج ١ ص ٧٧٢ .

(٤) البحر المحيط ج ١ ص ٥٦٠ .

(٥) تفسير الطبري ج: ١ ص: ٤٩١

وقال { لأنفسكم } لأن المنفعة في ظاهرها آنية بالنسبة للفقراء ، أما بالنسبة لهم فيدخرها عنده ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، «: لما قدم الأمر بالصلاة والزكاة أتى بهذه الجملة الشرطية عامة لجميع أنواع الخير، فيندرج فيها الصلاة والزكاة وغيرهما. »[١] وهذا أفضل من قصر الخير على الزكاة أو أنواع معينة من الخيرات لأن حمله على العموم يدخل فيه الصلاة والزكاة وليس العكس.

وقال {عند الله } لتكثير الثواب وتعظيمه وضمانه ، وهذا التعبير خير دافع ومحرك لنزعة الخير الفطرية التي لو ظلوا محافظين عليا ما احتاجوا إلى كل هذا التذكير من الغفور الرحيم .

والظرفية هنا المكاتبة ممتنعة ، وإنما هي مجاز بمعنى القبل ، كما تقول لك: عندي يد ، أي في قبلي، أو بمعنى في علم الله نحو: {وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ }، أي في علمه وقضائه ، أو بمعنى الاختصاص بالإضافة إلى الله تعالى تعظيماً كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُون عن عبادته) [٢]

ثم ذيل الآية بقوله { إن الله بما تعملون بصير } وصدر هذا التذييل بـ{ إن } المفيدة لتأكيد ما بعدها حيث نزلهم منزلة الشاكين : لأن نفوسهم الأمارة بالسوء ربما تحملهم أحياناً على الركون إلى أهل الكتاب فيما سبق ، وهذا من تأكيد الحرص عليهم وعلى سلامة إيمانهم .

وأتى بلفظ الجلالة بدلاً من الضمير لتربية المهابة في نفوسهم وزيادة في تذكيرهم به – تعالى – وكذلك « المجيء بالاسم الظاهر يدل على استقلال الجمل، فلذلك جاء إنا لله ، ولم يجيء إنه ، مع إمكان ذلك في الكلام. وهذه جملة خبرية ظاهرة التناسب في ختم ما قبلها بها. [٣]

وقوله { بصير } يشير إلى أمرين أحدهما : أن الله بصير بما يحدث بينهم وبين أهل الكتاب ، وبمدى استجابتهم لهم ، فهو من باب الوعيد ، وبصير بما يقدمونه من الخير فهو

---

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٥٦٠ .
(٢) البحر المحيط ج ١ ص ٥٦٠
(٣) البحر المحيط ج ١ ص٥٦٠

من باب الوعد ، الذي يزيد من ثقتهم ومن إقدامهم واستمرارهم على فعل الخيرات قال أبو السعود « فهو وعد للمؤمنين ، وقرئ بالياء فهو وعيد للكافرين »[١]

لأن العليم القدير إذا علم شيئاً فهو يرتب عليه ما يناسبه ، إذ لا يذهله جهل ولا يعوزه عجز، وفي هذا وعد لهم يتضمن وعيداً لغيرهم لأنه إذا كان بصيراً بما يعمل المسلمون كان بصيراً بما يعمل غيرهم.[٢]

. وكنى بقوله: بصير عن علم المشاهد، أي لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيعه ، ومن كان مبصراً لفعلك، لم يخف عليه ، هل هو خير أو شر، وأتى بلفظ بصير دون مبصر، إما لأنه من بصر، فهو يدل على التمكن والسجية في حق الإنسان ، أو لأنه فعل للمبالغة بمعنى مفعل ، الذي هو للتكثير. ويحتمل أن يكون فعيل بمعنى مفعل ، كالسميع بمعنى المسمع،)٣(

وقوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(المزمل: ٢٠)

بدأت الآية الكريمة بهذا التأكيد المطمئن لقلبه – صلى الله عليه وسلم –{ إن ربك } وإضافة الرب إليه إضافة تشريف وتكريم ، وتنويه بالمعية ، وأسلوب الخطاب يشعر بالقرب والدنو والشفقة والتحنن .

والمراد بالقيام الصلاة ويعلل صاحب البحر لذلك بقوله : « }. لما كان أكثر أحوال الصلاة القيام عبر به عنها، وهذه الآية نزلت تخفيفاً **لما** كان استمرار استعماله من أمر قيام الليل،إما على الوجوب، وإما على الندب، »)٤(

والغرض من التنصيص على علم الله في الآية هو تعريفه – صلى الله عليه وسلم – وتعريف الطائفة التي تشاركه في هذا الأمر أن الله مطلع على ما أتوا به من قيام .

---

(١) تفسير أبي السعود ج ص
(٢) التحرير والتنوير ج ١ ص ٦٧٢ .
(٣) البحر المحيط ج ١ ص٥٦٠
(٤) البحر المحيط ج ١٠ ص ٣١٩ .

وجعل صاحب البحر قوله { أدنى } من باب الاستعارة حيث قال : « ، واستعير الأدنى، وهو الأقرب للأول ، لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز، وإذا بعدت كثر ذلك » [١]

وفي قوله {نصفه وثلثه } قراءتان إحداهما بالنصب والأخرى بالجر وبعد ما ذكر صاحب البحر معنى الآية على القراءتين قال « . وعلى القراءتين يكون علمه تعالى بذلك على حسب الوقوع منهم، لأنهم قاموا تلك المقادير في أوقات مختلفة ، قاموا أدنى من الثلثين ونصفاً وثلثاً، وقاموا أدنى من النصف وأدنى من الثلث، فلا تنافي بين القراءتين»[٢]

وقوله { وطائفة من الذين معك } فيه مدح لهم وثناء عليهم فهم معه – صلى الله عليه وسلم – وهم حريصون كل الحرص على التأسي به . وبجانب ذلك يفهم منه التعريض بغيرهم وزرع الأسى والأسف على فوات هذه المعية وعلى عدم التأسي والالتزام .

وجعل صاحب البحر دخول {من } في قوله { وطائفة من الذين معك } دليلاً على عدم الفرضية على الجميع حيث قال : « {وَطَائِفَةٌ مّنَ الَّذِينَ مَعَكَ } دليل على أنه لم يكن فرضاً على الجميع، إذ لو كان فرضاً، لكان التركيب: والذين معك ، إلا إن اعتقد أنهم كان منهم من يقوم في بيته ، ومنهم من يقوم معه ، فيمكن إذ ذاك الفرضية في حق الجميع »[٣]

وقال { والله يقدر الليل والنهار } فاستعمل لفظ الجلالة هنا دون لفظ الرب كما جاء في أول الآية وذلك لأن تقدير الليل والنهار أمر يحتاج إلى قدرة وعظمة فناسبه لفظ الجلالة { الله } أما في بداية الآية فعلى العكس من ذلك حيث المقام هناك يحتاج إلى قرب وتودد وتحنن فناسبه لفظ الرب .

وجعل الزمخشري الغرض من تقديم لفظ الجلالة الاختصاص ، ونفى ذلك صاحب البحر حيث قال : «{وَاللَّهُ يُقَدّرُ الَّلَيْلَ وَالنَّهَارَ }: أي هو وحده تعالى العالم بمقادير الساعات. قال الزمخشري: وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه يقدر هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير. انتهى. ، وهذا مذهبه، وإنما استفيد الاختصاص من سياق الكلام لا من تقديم المبتدأ. لو قلت: زيد يحفظ القرآن أو يتفقه في كتاب سيبويه، لم يدل تقديم المبتدأ على الاختصاص. »[٤]

---

(١) المرجع السابق ج ١٠ ص ٣١٩
(٢) المرجع السابق ج ١٠ ص ٣٢٠ .
(٣) المرجع السابق ج ١٠ ص ٣٢٠
(٤) البحر المحيط ج ١٠ ص ٣٦٠ .

وألحظ أن النظم الكريم جاء في أول الآية بقوله { إن ربك يعلم } بالفعل المضارع ، ثم قال بعد ذلك { علم ألن تحصوه } بالفعل الماضي والعلة في ذلك أن علم الله المشار إليه في أول الآية مستمر مع اسنمرار قيامهم ، أما علمه المشار إليه هنا فهو سابق لقيامهم ، وفيه زيادة اطمئنان لهم ، وهو من أهم الأسباب التي ترتبت عليها التوبة والمغفرة ، والتي منها كذلك عدم قدرتهم على إحصاء الليل ، ، ومنها المرض الذي يقعدهم عن قيام الليل ، ومنها الجهاد في سبيل الله في كل الأحوال .

ويفهم من الآية أن الجهاد في سبيل الله مقدم على قيام الليل ، بل هو أفضل منه ، ولقد قال المجاهد لإمام الحرمين المتعبد

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب [١]

ومجيء التوبة عقب العلم والمدلول عليها بالفاء { علم ألن تحصوه فتاب عليكم } دليل على سرعة التوبة ، وأنها حصلت عقب العلم مباشرة ، وهذا من شأنه أن يزيد في اطمئنانهم بقبول توبتهم وعدم مؤاخدتهم بتقصيرهم .

وأعاد – تعالى - ذكر علمه مع المرض والجهاد في سبيل الله ، لاختلاف المعلوم ، ثم رتب التوبة على عدم القدرة على :الإحصاء لأنه حدث بالفعل ، أما المرض والجهاد فلم يحدثا ، لذلك قال { سيكون } وقبل ذلك قال : { فتاب عليكم } .

ثم أمرهم بإقامة الصلاة المفروضة ، وهذا يوحي بعدم قبول تلك الأعذار في عدم إقامتها ، والعلة من التنبيه على هذا الأمر وتأكيده حتى لا يظنوا سريان قبول تلك الأعذار إلى عدم إقامة الصلاة المفروضة .

ويعلل صاحب التحرير والتنوير لأمرهم بالصلاة عقب ما ذكر حيث يقول « وفي هذا التعقيب بعطف الأمر بإقامة الصلاة إيماء إلى أن في الصلوات الخمس ما يرفع التبعة عن المؤمنين وأن قيام الليل نافلة لهم وفيه خير كثير وقد تضافرت الآثار على هذا ما هو في كتب السنة. » [٢]

---

١ - تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٤٨ . -- تفسير ابن كثير -- سم المؤلف :: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء-- وفاة المؤلف :: ٧٧٤-- دار النشر :: دار الفكر-- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٤٠١

(٢) التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ٢٨٧ .

حتى عند الحديث عن قيام الليل وما تبعه من حديث عن إقامة الصلاة نرى الزكاة حاضرة بنوعيها ، زكاة الفريضة والمشار إليها بقوله { وآتوا الزكاة } والنافلة والمشار إليها بقوله { وأقرضوا الله قرضاً حسناً } « وعطف {وآتوا الزكاة}تتميم لأن الغالب أنه لم يَخلُ ذكر الصلاة من قرن الزكاة معها حتى استنبط أبو بكر رضي الله عنه من ذلك أن مانع الزكاة يقاتل عليها، فقال لعمر رضي الله عنه «لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة».»[١]

وإقراض الله هو الصدقات غير الواجبة ، شبه إعطاء الصدقة للفقير بقرض يُقرضه الله ، لأن الله وعد على الصدقة بالثواب الجزيل فشابه حالُ معطي الصدقة مستجيباً رغبة الله فيه بحال من أقرض مستقرضاً في أنه حقيق بأن يُرجع إليه ما أقرضه ، وذلك في الثواب الذي يُعطاه يوم الجزاء.[٢]

ووصف القرض بأنه حسن ليحترز به عن سائر القروض التي حذر الشرع الحكيم منها، مثل القرض الذي يجر نفعاً ، أو إتباعه بالمن والأذى أو الرياء أو غير ذلك من بقية الأنواع .

والواو في قوله { واستغفروا الله } « يجوز أن تكون الواو للعطف فيكون معطوفاً على جملة {وما تقدموا لأنفسكم}الخ، فيكون لها حكم التذييل إرشاداً لتدارك ما عسى أن يعرض من التفريط في بعض ما أمره الله بتقديمه من خير فإن ذلك يشمل الفرائض التي يقتضي التفريط في بعضها توبةً منه.

ويجوز أن تكون الواو للاستئناف وتكون الجملة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن الترخيص في ترك بعض القيام إرشاداً من الله لما يسُدّ مسدّ قيام الليل الذي يعرض تركه بأن يستغفر المسلم ربّه إذا انتبه من أجزاء الليل ، وهو مشمول لقوله تعالى: {وبالأسحار هم يستغفرون}(الذاريات: ١٨)، ..... »[٣]

وتذييل الآية بقوله{ إن الله غفور رحيم } ليكون تعليلاً للأمر بالاستغفار ، أي لأن الله **كثير المغفرة شديد الرحمة. والمقصود من هذا التعليل الترغيبُ والتحريض على الاستغفار بأنه مرجوّ الإجابة. وفي الإتيان بالوصفين الدّالين على المبالغة في الصفة إيماء إلى الوعد بالإجابة.**[٤]

---

(١)- التحرير والتنوير ج ٢٩ ص
٢)- التحرير والتنوير ج ص ٢٨٧ .
(٣) التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ٢٨٧ .
(٤) انظر التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ٢٩٠ .

واختار الرازي كون المغفرة عامة لأنه أنسب لمقام المدح فقال بعد ما ذكر الآراء « ، والغرض من الآية تقرير المدح فوجب حمله على الكل تحقيقاً للمدح- والله سبحانه وتعالى أعلم، » [1]

وآخر هذه الآية الكريمة من أول قوله { وأقيموا الصلاة } شبيه بالآية السابقة في سورة البقرة ١١٠ ، ولكن ثمت فروق ، أما التشابه فهناك ذكر الأمر بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وهنا في المزمل كذلك ، وهناك قال {وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله} وهنا كذلك ، أما الفروق : ففي آية البقرة لم يقل { وأقرضوا الله قرضاً حسناً } وهنا ذكر ذلك ، والعلة أن الحديث في آية البقرة كان مع قوم من المؤمنين يجالسون أهل الكتاب ويحادثونهم ويستمعون إليهم ويخشى القرآن عليهم من مغبة التقليد أو المحاكاة أو التأثر ، أو الانخراط في سلوكهم المشين ، فالمقام مقام تحذير وتخويف وبيان لما تنطوي عليه قلوب أهل الكتاب . من الرغبة الملحة في اجتذاب أهل الإسلام إليهم ، كما أن المقام لا يحتاج إلى مزيد من التفصيل في طلب فعل الخيرات .

أما هنا في المزمل فالحديث مع أهل الإيمان ، حيث الهمم العالية ، والمسارعة في فعل الخيرات للفوز بالأجر والمثوبة عند الله ، فهم ملتزمون بفعل الفرض ، ونفوسهم تواقة إلى المزيد لذلك خاطبهم بما يتلاءم مع ما يوجد في نفوسهم من رغبة فقال { وأقرضوا الله قرضاً حسناً} .

وزاد هنا قوله { هو خيراً وأعظم أجراً } وذلك لعلمه –تعالى - بتقديم الخير من قبل المؤمنين فحرص على تأكيد الجزاء وإدخال الفرح والبهجة والسرور إلى نفوسهم .

و آية البقرة ذيلت بقوله { إن الله بما تعملون بصير }ليفهم منه أنه – تعالى – مطلع على من استجاب منهم ومن لم يستجب ، ويلمس فيه الزجر والتخويف من عاقبة المخالفة ، أما هنا فذيلت الآية بقوله واستغفروا الله إن الله غفور رحيم } فهي خاتمة مرشدة ومعلمة لما فيه صلاح حالهم ، فقد أمرهم بالاستغفار لما حدث منهم من تقصير وأكد لهم قبوله .

ويحتمل أن يكون قد اكتفى بما زاده هناك واكتفى بما **زاده** هنا

وقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) (النساء:٧٧)

---

(١) تفسير الرازي ج ٢٠ ص ٦٩٧

وجاءت الصلاة في الآية الكريمة عقب الأمر بكف الأيدي عن قتال الأعداء ، لأنهم طلبوا وأكثروا من الطلب وألحوا وأكثروا من الإلحاح ، وعالم السر وأخفي يعلم أن الأمر بالقتال في هذا الوقت ليس في صالحهم ولا في صالح الإسلام والدعوة ، أما الصلاة فهي مطلوبة من بداية الأمر لأنها تهذب النفوس وتقوم الأخلاق وتعين على الصبر على طاعة الله – سبحانه –

وهذه الآية وثيقة الصلة بالتي قبلها « لأنه تعالى لما أمر بالقتال حين طلبوه وجب امتثال أمر الله .

فلما كف عنه بعضهم قال تعالى: ألا تعجب يا محمد من ناس طلبوا القتال فأمروا بالموادعة، فلما كتب عليهم فر فريق وجزع. » [١]

وقوله { كفوا أيديكم } هو الدليل على طلبهم ويفهم منه أن بعضهم قد امتدت يده ، فلا يعقل أن يقول لهم كفوا قيل أن تمتد أيديهم ، « ودلت الآية على أن إيجاب الصلاة والزكاة كان مقدماً على إيجاب الجهاد ، وهذا الترتيب هو المطابق لما في العقول ، لأن الصلاة عبارة عن التعظيم لأمر الله، والزكاة عبارة عن الشفقة على خلق الله. ولا شك أنهما متقدمان على الجهاد. »[٢]

والاستفهام الذي افتتحت به الآية معناه التعجب من حالهم في تناقضهم ، طلبوا القتال ، فنهوا عنه ، فلما أمروا به استفهموا عن سبب فرضيته ، وطلبوا التأخير . ، قال أبو السعود « } تعجيبٌ لرسولِ الله- صلى الله عليه وسلم - من إحجامهم عن القتال مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حِراصاً عليه بحيث كادوا يباشرونه كما ينبئ عنه الأمرُ بكفّ الأيدي فإن ذلك مُشعرٌ بكونهم بصدد بسطِها إلى العدو بحيث يكادون يسطون بهم، » [٣]

والتعجب الذي افتتحت به الآية هو ليس من القول لهم { كفوا أيديكم } وحده وإنما يجتمع معه قولهم { لم كتبت علينا القتال }

قال أبو الصعود : {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ } الخ، وهو عطفٌ على {قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ } باعتبار مدلولِه الكنائيِّ إذْ حينئذٍ يتحقق التبايُنُ بين مدلولَي المعطوفين وعليه يدور أمرُ التعجيبِ كأنه قيل: ألم ترَ إلى الذين كانوا حِراصاً على القتال، فلما كُتب عليهم كرهَه بعضُهم، [٤] وهذه الكراهية ليست كراهية اعتراض وإنما هي خوف من الموت .

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٧١٣ .
(٢) البحر المحيط ج ٣ ص ٧١٣ .
(٣) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٠٣
(٤) تفسر أبي السعود ج٢ ص ٢٠٤

{وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ } يحكي الله مقالتهم وطريقتهم هنا في هذا الاستفهام هي طريقة الاسنجداء والاستعطاف ، وليس من المعقول أن يكون غرضهم الاعتراض ، أو لأنهم نظروا إلى قلتهم وقلة عتادهم .، أما إذا كان القائل لذلك هم أهل النفاق فغرضهم من استفهامهم ظاهر.

وجعل صاحب البحر من الظاهر أن المراد بهم هنا المنافقون فقال « الظاهر أن القائلين هذا: هم منافقون، لأن الله تعالى إذا أمر بشيء لا يسأل عن علته من هو خالص الإيمان، ولهذا جاء السياق بعده: {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ } وهذا لا يصدر إلا من منافق » [١]

وترى { إذا } المفاجأة قد جاءت عقب كتابة القتال عليهم مباشرة لتدل على عدم ترويهم في الأمر قبل استخبارهم ، وأيضاً يفهم منها أنه ما كان يتوقع منهم مثل هذا وخاصة أنهم من أهل الإيمان

قال أبو السعود : وتصديرُه بإذا المفاجَأةِ لبيان مسارعتِهم إلى الخشية .....، أي فاجأ فريقٌ منهم أن يخشوا الكفارَ أن يقتلوهم ولعل توجيهَ التعجيبِ إلى الكل مع صدور الخشيةِ عن بعضهم للإيذان بأنه ما كان ينبغي أن يصدُر عن أحدهم ما ينافي حالتَهم الأولى، [٢]

وقوله { يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية } فيه تبكيت لهم وتنبيه على نسيانهم وغفلتهم عن قدرة الله التي تجلب النصر وتتلاشى معها الأسباب وتقدير البشر.

قال أبو السعود : يخشَون أي يخشَوْنهم مُشْبهين لأهل خشيةِ الله تعالى {أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً } عطفٌ عليه بمعنى أو أشدَّ خشيةً من أهل خشيةِ الله ، أو على أنه مصدرٌ مؤكدٌ على جعل الخشيةِ ذاتَ خشيةٍ مبالغةً كما في جدّ جِدُّه أي يخشَوْنهم خشيةً مثلَ خشيةِ الله أو خشيةً أشدَّ خشيةً من خشية الله. [٣]

واو في قوله { أو أشد خشية } جئ بها لتفيد أن بعضهم قد اقتصرت خشيته للناس في كونها مثل خشية الله والبعض الآخر تجاوزوا وأفرطوا في الخشية حتى بلغت أشد من خشيتهم لله ، وانظر كيف صور القرآن شدة خوفهم وهلعهم وحرصهم على الحياة وتشبسهم بها .

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٧١٥ .
(٢) تفسر أبي السعود ج ٢ ص ٢٠٤
(٣) تفسر أبي السعود ج ٢ ص ٢٠٤

وأياً ما كان فكلمةُ (أو) إما للتنويع على معنى أن خشية بعضِهم كخشية الله وخشية بعضِهم أشدُّ منها، وإما للإبهام على السامع وهو قريبٌ مما في قوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ } يعني أن من يبصرهم يقول إنهم مائة ألف أو يزيدون [١]

وافتتاح الجواب بقوله { قل } يدل علي عدم الاهتمام بهم فرأيناهم خاطبوا الله –تعالى – مباشرة بقولهم { وقالوا { ربنا } ورغم ذلك لم يكونوا أهلاً لمخاطبته – تعالى - بل نوب رسوله –صلى الله عليه وسلم - في الرد على سؤالهم .

والجواب بقوله: قل متاع الدنيا قليل} جواب عن قولهم: {لولا أخرتنا إلى أجل قريب} سواء كان قولهم لسانياً وهو بيّن، أم كان نفسياً، ليعلموا أنّ الله أطّلع رسوله على ما تضمره نفوسهم، أي أنّ التأخير لا يفيد والتعلُّق بالتأخير لاستبقاء الحياة لا يوازي حظّ الآخرة ، وبذلك يبطل ما أرَادوا من الفتنة بقولهم: {لولا أخرتنا إلى أجل قريب}.[٢]

ثم رغبهم في الآخرة ونفرهم عن الركون إلى الدنيا بقوله { والآخرة خير لمن اتقى } وقوله { لمن اتقى } فيه تعريض بقلة تقواهم

وإنما قيل: {لِمَنِ اتقى } حثاً لهم على اتقاءِ العِصيانِ والإخلالِ بمواجب التكليفِ ا[٣]

ثم أمن عاقبتهم حتى لا يتهيبوا الإقدام في خوض غمار المعارك بقوله { ولا تظلمون فتيلاً } وليس المراد به نفي الظلم عنه تعالى لأنه منفي بطبيعة الحال ، وإنما المراد به استلال الخوف من قلوبهم ، وزرع الطمأنينة والأمل وذلك خير دافع ومشجع على إقبالهم وعدم ترددهم .

وموقع قوله: {ولا تظلمون فتيلاً} موقع زيادة التوبيخ الذي اقتضاه قوله: {قل متاع الدنيا قليل}، أي ولا تنقصون شيئاً من أعماركم المكتوبة ، فلا وجه للخوف وطلب تأخير فرض القتال؛ [٤]

وقيل معنى نفي الظلم هنا أنّهم لا يظلمون بنقص ثواب جهادهم ، فيكون موقعه موقع التشجيع لإزالة الخوف ، ويكون نصبه على النيابة عن المفعول المطلق. وقيل: معناه أنّهم لا يظلمون بنقص أقلّ زمن من آجالهم، ويجيء على هذا التفسير أن يجعل {تظلمون} بمعنى تنقصون،[٥]

---

(١) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٠٤
(٢) التحرير والتنوير ج ٥ ص ١٢٧ .
(٣) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٠٤
(٤) التحرير والتنوير ج ٥ ص ١٢٧ .
(٥) التحرير والتنوير ج ٥ ص ١٢٧ .

وقولـه تعـالى : (فَـإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَـاذْكُرُوا اللَّـهَ قِيَامـاً وَقُعُوداً وَعَلَـى جُنُـوبِكُمْ فَـإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً) (النساء:١٠٣)

بعد ما بين الله – تعالى – التخفيف في صلاة السفر وصلاة الخوف بين أن صلة العبد بربه لا تقتصر على الصلاة فحسب فهناك العبادة الميسرة والتي لا عذر لمعتذر في تركها ، ولا تحدد بزمان ولا مكان ولا تتطلب شروطاً خاصة ، وهي عبادة الذكر سواء أكانت باللسان أو بالقلب أو بالتفكر .

يقول الطبري : يعني بذلك جل ثناؤه فإذا فرغتم أيها المؤمنون من صلاتكم وأنتم في مواقف عدوكم التي بيناها لكم فاذكروا الله على كل أحوالكم قياما وقعودا ومضطجعين على جنوبكم بالتعظيم له والدعاء لأنفسكم بالظفر على عدوكم لعل الله أن يظفركم وينصركم عليهم ، وذلك نظير قوله (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) وكما حدثني المثنى قال ثنا أبو صالح قال ثني معاوية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله :(فاذكروا الله قياما) يقول لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها جزاء معلوما ، ثم عذر أهلها في حال عذر غير الذكر فإن الله لم يجعل له حدا ينتهي إليه ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله فقال فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم بالليل والنهار في البر والبحر وفي السفر والحضر والغنى والفقر والسقم والصحة والسر والعلانية وعلى كل حال . (١)

وأرجح الرأي القائل بأنه ليس المراد بالذكر الصلاة وذلك لوجاهة قولهم فهو المناسب لسياق الآية ، قال صاحب أحكام القرآن :« وأما الذكر الذي في قوله تعالى (فإذا قضيتم الصلاة) فليس هو الصلاة ولكنه على أحد وجهين أما الذكر بالقلب وهو الفكر في عظمة الله وجلاله وقدرته وفيما في خلقه وصنعه من الدلائل عليه وعلى حكمه وجميل صنعه ، والذكر الثاني الذكر باللسان بالتعظيم والتسبيح والتقديس ، وروي عن ابن عباس قال لم يعذر أحد في ترك الذكر إلا مغلوبا على عقله، والذكر الأول أشرفهما وأعلاهما منزلة والدليل على أنه لم يرد بهذا الذكر الصلاة أنه أمر به بعد الفراغ منها بقوله تعالى فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم » (٢)

---

(١) تفسير الطبري ج ٥ ص : ٢٥٩ ، ٢٦٠

(٢) أحكام القرآن ٢ ج ٢ ص : ٢٤٧ –- أحكام القرآن اسم المؤلف :: أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر ولادة المؤلف :: ٣٠٥ –- وفاة المؤلف :: ٣٧٠ –- دار النشر :: دار –- إحياء التراث العربي –- مدينة النشر :: بيروت –- سنة النشر :: ١٤٠٥

وحتى لا تنقطع علاقة العبد بربه نجد القرآن الكريم عقب كل عبادة يأمر بالذكر ، فمثلاً عقب عبادة الحج (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ..... (البقرة:٢٠٠) وفي وقت لقاء العدو والخوف منه قال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (لأنفال:٤٥) وعقب الفراغ من صلاة الجمعة قال (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الجمعة:١٠) وعقب الفراغ من الصيام قال) ..... وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة:١٨٥) فالتكبير ذكر والشكر ذكر .

وافتتحت الآية الكريمة ب{إذا}لتدل على تحقق التزامهم وتحقق استجابتهم لأمر الله – تعالى - ، كيف لا وهم أهل الإيمان وأهل الجهاد ، وقال { قضيتم }ولم يقل فرغتم ، ولا أديتم ليدل على أن تلك الصلاة أديت بمشقة وتعب وهدا المعنى لا يتحقق في الفراغ أو الأداء.

وأدخل الفاء في قوله { فاذكروا } ليجعلوا ذكرهم لله عقب فراغهم مباشرة من الصلاة ، وبذلك لا تنقطع علاقتهم بربهم الذي هم في أمس الحاجة إليه وخاصة في وقت لقاء العدو ، من نصر وتأييد .

وأرى أن الأمر في قوله { واذكروا } للاستحباب ،، إلا إذا كان المراد بالذكر الصلاة كما ذهب البعض إلى ذلك ، وأتى بلفظ الجلالة بدلاً من الضمير حيث لم يقل فاذكروني ، لتربية المهابة في نفوسهم وحملهم على الالتزام .

وليس المراد بقوله {قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم } ترك الذكر فيما عداها من كيفيات ، بل المراد به المداومة والاستمرار في كل الأحوال ، والأذكار الواردة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – حال الركوب والنوم والاستيقاظ وغير ذلك تؤكد هذا المراد ، وهذا ما ذكره الطبري قبل ذلك .

وجاء بالفاء في قوله { فإذا اطمأننتم } ليدل على أن الاطمئنان نتيجة مترتبة على الذكر . ولا تتأخر عنه كما صرح به في قوله – تعال(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد:٢٨) وجاء بـ{إذا}ليدل على تحقق اطمئنانهم بسبب ترتبه على الذكر .

وجاءت الفاء في قوله { فأقيموا } لتدل على أن المؤمن مطالب بإقامة الصلاة بتمامها فور تمكنه من الأمن ، والذي ربما يكون مدعاة للتسويف والتكاسل ، وهكذا حياة المؤمن ما بين قضاء للصلاة وذكر وإقامة ، والفاآت التي ذكرت في هذه الآية تشير إلى ذلك .

وهذه الآيات بينت سماحة الإسلام ويسره بالتخفيف في صلاة المسافر والخائف والإتمام والإكمال عند الأمن ، ثم ختمت هذه الآية بقوله { إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً } ليدلل بذلك على أن الصلاة لا تسقط عن المؤمن بأي عذر فليس ، هناك عذر أشد من قتال الأعداء ، ورغم ذلك ما أسقط عنهم إقامتها في وقتها ، بل علمهم كيفيتها حتى لا تكون سبباً في انتهاز الفرصة من قبل أعدائهم فيميلون عليهم ميلة واحدة .

وقوله تعالى (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (الأنعام:٧٢)

ورد قبل هذه الآية قوله تعالى (قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)(الأنعام:٧١)

هذه الآية الكريمة وثيقة الصلة بالآية التي نحن بصددها لذلك جل علماء التفسير جمعوا الآية الثانية مع الأولى .

بعلم الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – الأسلوب الأمثل والمقنع في محاورة أهل الكفر والضلال ، ففي البداية يأمره أن ينكر عليهم مطلبهم الخطير وهو انضمام أهل الإيمان لأهل الشرك ولو لحظة ، أو أمره أن يقول لهم ذلك ابتداء { قل أندعو من دون الله } والمقام يتطلب لفظ الجلالة لأنه يربي المهابة ، ولأنه المقصود الأول في هذا الحوار ، والدعاء لا يكون إلا لمن عنده القدرة على جلب النفع ودفع الضر وآلهتهم لا تملك شيا من ذلك ، وفيه غاية الإنصاف في الحجاج ، وترغيب مع التبكيت فكأنه - صلى الله عليه وسلم - يقول لهم : أتدعون من دون الله مالا ينفعكم ولا يضركم . ، والفعل المضارع في المواطن الثلاث يفهم منه زيادة التبكيت على استمرارهم في الدعاء مع عدم تحقق جلب النفع ودفع الضر . وهل يعقل أن يرجع العاقل إلى الوراء بعد تقدمه ، { ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله } وبناء الفعل للمجهول يشير إلى إلحاح الكفرة ومحاولاتهم المستميتة مع أهل الإيمان ، وفي هذا الرد قتل للأمل وإحباط للمحاولات اليائسة البائسة .

ومن الذي يستبدل حياة الاستقرار والهدؤ والطمأنينة بحياة الحيرة والتردد والتخبط وعدم الاستقرار؟ ،

ثم آثر كلمة { حيران } لما توحي به من الضيق واليأس بسبب التردد وعدم الاستقرار ، وانظر إلى حرف { في } وحرف { أل } في قوله { في الأرض } فهما يصوران لك مدى حيرته فهي قد انتشرت وشاعت وتغلغلت في جميع الأرض ظاهرها وباطنها ، وهذا المشهد شبيه بموقف الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو ونزل فيهم قوله تعالى (وَعَلَى الثَّلاثَةِ

الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (التوبة:١١٨)

وبين القرآن أن هذا الحيران لا عذر له فقد امتدت إليه يد الخلاص من الحيرة لكنه عافها وأباها ، لفرط شقاوته وتعاسته { له أصحاب يدعونه إلى الهدى أتنا } وفي قوله { أصحاب } ثناء وتشريف وتكريم لأهل النصح والإرشاد والدعوة إلى الخير، وهذا عام يشمله – صلى الله عليه وسلم – ويشمل كل من ترسم خطاه إلى قيام الساعة .

وقوله { قل إن هدى الله هو الهدى } أمر لرسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يخبر زمرة المعرضين وخاصة الذين جمعوا مع الإعراض الصد عن سبيل الله إن الهدى هو هدى الله وحده، ولا هدى معه ، وبدأ بالتوكيد لأهمية الأمر ، ثم أضاف الهدى إلى لفظ الجلالة والغرض من ذلك التعظيم والتفخيم لهذا الهدى ، وفيه حمل على الاتباع ، وتعريض وزجر لمن أعرض عنه ، وضمير الفصل ، وتعريف الهدى ب{ أل } دليل على أنه وحده هو الهدى ، وما عداه ليس بهدى .

ثم ختمت الآية بهذه الخاتمة التي لا مجال بعدها لمحاورتهم { وأمرنا لنسلم لرب العالمين } وأمرنا أمر وجوب لننقاد لخالقنا ورازقنا ومربينا ، وأن نستمر على هذا بلا انقطاع ، وقوله { لرب العالمين } فيه إشارة إلى أن من كان رباً للعالمين فيجب على العالمين أن ينقادوا له باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ولفظ الرب جاء كالتعليل الملزم للاتباع . قال أبو السعود « والتعرض لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الأمر وتأكيد وجوب الامتثال به » [١]

ثم جاء الأمر بالصلاة عقب الأمر بالانقياد وهذا يدل على أهميتها والاعتناء بها كأهم مظهر من مظاهر الانقياد ، وقيل في سبب نزولها « أن عبد الرحمن بن أبي بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان فنزلت وعلى هذا كان أمر الرسول- صلى الله عليه وسلم - بهذا القول إجابة عن الصديق - رضي الله تعالى عنه - تعظيما لشأنه وإظهارا للاتحاد الذي كان بينهما » [٢] .

ولماذا عدل النظم الكريم من التكلم إلى الخطاب في قوله { وأمرنا لنسلم لرب العالمين . وأن أقيموا الصلاة } وقد نقل الألوسي الإجابة عن هذا السؤال بقوله « وذكر الإمام أنه كان الأظهر أن يقال أمرنا لنسلم ولأن نقيم إلا أنه عدل لما ذكر، للإيذان بأن الكافر ما دام

---

(١) تفسير أبي السعود ج ٣ ص ١٥٠
(٢) تفسير البيضاوي ج ٢ ص ٤٢١

كافرا كان كالغائب الأجنبي ، فخوطب بما خوطب به الغيب ، وإذا أسلم ودخل في زمرة المؤمنين صار كالقريب الحاضر فخوطب بما يخاطب به الحاضرون » (١)

والنظم القرآني نراه قد بدأ بالإسلام ، وأعقبه بالصلاة ، ثم أعقبها بالتقوى ، فهل لهذا الترتيب فائدة ؟ نعم ذكر ذلك الرازي بقوله : « والله سبحانه لما بين أولاً أن الهدى النافع هو هدى الله، أردف ذلك الكلام الكلي بذكر أشرف أقسامه على الترتيب وهو الإسلام الذي هو رئيس الطاعات الروحانية، والصلاة التي هي رئيسة الطاعات الجسمانية، والتقوى التي هي رئيسة لباب التروك والاحتراز عن كل ما لا ينبغي، » (٢)

وألاحظ أن القرآن الكريم هنا ذكر الصلاة وترك قرينتها وهي الزكاة فهل لذلك من علة ؟ أقول لما كان الحديث في الآيتين عن أمر التوحيد وهو إفراد الله –تعالى – وحده بالعبودية والصلاة تشتمل على توحيده لما فيها من ركوع وسجود وخضوع لله وحد ، أما الزكاة فهي تتعلق بمصالح العباد .

ثم ذيلت الآية بقوله { وهو الذي إليه تحشرون } ليكون تهديداً شديداً ووعيداً مخيفاً لمن ترك هدى الله ولم يسلم قياده إليه ، وفي نفس الوقت هي وعد وبشارة لأهل الإيمان لأنهم يوقنون بما أعده الله لهم من عظيم ثوابه وكريم عطائه ، وهذا التذييل هو « جملة مستأنفة موجبة للامتثال بما أمر به من الأمور الثلاثة » (٣) وذكر صاحب البحر أن الجملة خبرية فقال « {وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } جملة خبرية تتضمن التنبيه والتخويف لمن ترك امتثال ما أمر به » (٤) وقدم المعمول « لإفادة الحصر مع رعاية الفواصل أي إليه سبحانه لا إلى غيره تحشرون يوم القيامة » (٥)

وجعل الرازي هذه الخاتمة للتنبيه على منافع تلك الأعمال فقال « ثم بين منافع هذه الأعمال فقال: {وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } يعني أن منافع هذه الأعمال إنما تظهر في يوم الحشر والبعث والقيامة. » (٦)

واشتملت هذه الخاتمة على عدة مؤكدات « وهي: صيغة الحصر بتعريف الجزءين، وتقديم معمول {تحشرون} المفيد للتقوّي لأنّ المقصود تحقيق وقوع الحشر على من أنكره

---

(١) تفسر روح المعاني ج ٧ ص١٩٠
(٢) تفسير الرازي ج ١٣ ص ٢٨
(٣) تفسير أبي السعود ج ٣ ص١٥٠
(٤) البحر المحيط ج ٤ ص ٥٥٥ .
(٥) زوح المعاني ج ٧ ص ١٥٠
(٦) تفسير الرازي ج ١٣ ص ٢٨

من المشركين ، وتحقيق الوعد والوعيد للمؤمنين، والحصر هنا حقيقي إذ هم لم ينكروا كون الحشر إلى الله وإنَّما أنكروا وقوع الحشر، فسلك في إثباته طريق الكناية بقصره على الله تعالى المستلزم وقوعه وأنَّه لا يكون إلاّ إلى الله، تعريضاً بأنّ آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً. » [١]

وقوله تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (يونس:٨٧)

ولأهمية الصلاة ومنزلتها كانت هي الوصية الوحيدة المتفردة في هذا المقام فاتخاذ البيوت قبلة ثم عطف الأمر بالصلاة رغم أنها مفهومة من الكلام السابق ، والحكم على أهل إقامتها بالإيمان وأن لهم البشرى كل ذلك يؤكد تلك الأهمية التي أشرت إليها .

وبدأ الله – تعالى هذه الوصية بنفسه فقال { أوحينا } حيث أسند الإيحاء إلى ضميره ، وجاء هذا الضمير جمعاً لتعظيمه تعالى ، وللإشارة إلى أن هذا الأمر يحتاج إلى قدرة وهيمنة – وهكذا القرآن يتحدث عن الذات العلية بضمير الجمع في المقامات التي تحتاج إلى إظهار قدرته لحمل المكلف على الإنصياع وردع لغيره ، وهذا عكس المقامات التي يتحدث فيها عن الوحدانية فإنه يأتي فيها بضمير المفرد – وعبر بالفعل الماضي { أوحينا } ليفهم منه أن الإيحاء قد تم بالفعل ليكون أبلغ في الموعظة وأدعى للاعتبار .

اعلم أنه لما شرح خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر منهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أمر موسى وهرون باتخاذ المساجد والإقبال على الصلوات [٢]

وذكر موسى هنا باسمه لإقامة الحجة عليهم ، ثم ذكر أخاه من بعد ه لأن موسى هو الأصل وهارون تابع له في دعوته بدليل قوله تعالى على لسان موسى – عليه السلام (وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي) *)هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) (طه : ٢٩ : ٣٠ :٣١ :٣٢) ، واكتفى النظم الكريم هنا بذكر الأخوة دون التصريح باسم هارون وهذا على العكس من آيات أخري والعلة ضيق المقام هنا فهم قد خرجوا من ديارهم وإقامتهم في تلك البيوت إقامة محدودة فناسب الاختصار ، أو أنه اكتفى بذكره هناك ، أما المواطن التي ذكر فيها الاسم صراحة فالمقامات تتطلب ذلك ، لأن منها ما هو تذكير بالنعمة ومنها ما يحتاج إلى زيادة الإيضاح والبيان ، ومنها ما كان لإقامة الحجة ، وغير ذلك من دواعي ذكر العلم حسب المقام والسياق .

---

(١) التحرير والتنوير ج ٧ ص ٣٠٦ .
(٢) تفسير الرازي ج ١٧ ص ٢٩١

يقال: تبوأ المكان، أي اتخذه مبوأ كقوله توطنه إذا اتخذه موطناً، والمعنى: اجعلا بمصر بيوتاً لقومكما ومرجعاً ترجعون إليه للعبادة والصلاة [١] واللام في قوله { لقومكما } تدل على الاختصاص أي بيوت خاصة يستعملونها للسكنى والصلاة ، والعلة في إضافة القوم إليهما ، إثارة الشفقة والرحمة و الحث على المبادرة والمسارعة والاجتهاد حتى يتمكنوا من النجاة ويحافظوا على الصلاة .

والدليل على أن البيوت للسكنى أولاً تقديم قوله { تبوآ } وللصلاة ثانياً تأخير قوله { واجعلوا بيوتكم قبله } قال القرطبي : « وهذا يدل على أن القبلة في الصلاة كانت شرعا لموسى عليه السلام ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة فإن ذلك أبلغ في التكليف وأوفر للعبادة ، وقيل المراد صلوا في بيوتكم سرا لتأمنوا وذلك حين أخافهم فرعون فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت » [٢]

وقوله { بمصر } يفيد تحديد المكان حتى لا يكونوا في حيرة من أمرهم ، والوقت لامتسع فيه للاستفسار والمراجعة .

وجعل صاحب روح المعاني القبلة من باب المجاز فقال : « ، وعلى التفسيرين تكون القبلة مجازاً فيما فسرت به بعلاقة اللزوم أو الكلية والجزئية، والاختلاف في المراد هنا ناظر للاختلاف في أن تلك البيوت المتخذة هل للسكنى أو للصلاة فإن كان الأول فالقبلة مجاز عن المصلى وإن كان الثاني فهي مجاز عن المساجد. » [٣]

وجعل صاحب التحرير والتنوير إسناد الفعل لضميرهما من باب المجاز العقلي فقال « وفاعل هذا الفعل في الأصل هو الساكن بالمباءة، وإنما أسند هنا إلى ضمير موسى وهارون ــ عليهما السلام ــ على طريقة المجاز العقلي، إذ كانا سبب تَبَوّؤ قومهما للبيوت. والقرينة قوله: {لقومكما} إذ جعل التبوؤ لأجل القوم. » [٤]

وأفضل أن يكون هذا من باب الحقيقة لأن موسى وهارون داخلان في المطالبة بالتبؤ فهو لهما وللقوم وهذا التفسير أجدر وأولى بالمعنى المسوق له الكلام ، ففيه الحث على النشاط في البحث لأن الأمر يهمهما قبل القوم .

---

(١) تفسير الرازي ج ١٧ ص ٢٩١
(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٧١
(٣) روح المعاني ج ١١ ص ١٧٠
(٤) التحرير والتنوير ج ١١ ص ٢٦٥ .

وذكر صاحب التحرير والتنوير أن الحكمة من جعل البيوت قبلة دخول الشمس من أبوابها غالب أوقات النهار والفصول ، وفي ذلك الكثير من المنافع [١] ولكن تبقى الحكمة الأولى التي يعضدها المقام وهي جعلها قبلة من أجل الصلاة وهذا هو أول ما يتبادر إلى الذهن عند قراءة الآية الكريمة.

وأمْرهم بإقامة الصلاة، أي التي فرضها الله عليهم على لسان موسى ، والتي كانوا يصلونها من قبل مجيء موسى اتباعاً لإبراهيم عليه السلام وأبنائه. والظاهر أن الداعي إلى أمرهم بإقامة الصلاة أن اتخاذ البيوت كان في حالة رحيل فكانت حالتهم مظنة الشغل عن إقامة الصلوات فلذلك أمروا بالمحافظة على إقامة الصلاة في مدة رحلتهم. [٢]

والبشارة في قوله { وبشر المؤمنين } إما أن تكون عامة تشمل كل المؤمنين ، أو تخص المؤمنين بموسى –عليه السلام - « وعَطْفُ جملة: {وبشر المؤمنين} على ما قبلها يؤذن بأن ما أمروا به من اتخاذ البيوت أمر بحالة مشعرة بترقب أخطار وتخوف فإنهم قالوا: {ربنا لا تجعلنا فتنة}(يونس: ٨٥) فأمر موسى أن يبشرهم بحسن العاقبة ، وأنهم منصورون على عدوهم وناجون » [٣] « ووضعُ المؤمنين موضعَ ضمير القوم لمدحهم بالإيمان والإشعار بأنه المدارُ في التبشير» [٤]

ومن الملاحظ في الآية الكريمة تنويع الخطاب حيث كان للمثنى ثم للجمع ثم للمفرد ، وقد علل الرازي لذلك بقوله : « خوطب أولاً موسى وهارون أن يتبوؤا لقومهما بيوتاً ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء ، ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى – عليه السلام – بالبشارة تعظيماً لها وتعظيماً له – عليه السلام - [٥] وبعد ما ذكر صاحب فتح القدير هذا الرأي قال : « وقيل إن الخطاب في وبشر المؤمنين لنبينا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -على طريقة الالتفات والاعتراض والأول أولى » [٦]

وقال ابن القيم – رحمه الله - عن هذه الآية الكريمة « هو من أحسن النظم وأبدعه – وبعد ما ذكر تلك التعليلات فقال – وأيضاً فإن موسى وأخيه لما أرسلا برسالة واحدة كانا

---

(١) انظر التحرير والتنوير ج ١١ ص ٢٦٦ .
(٢) التحرير والتنوير ج ١١ص ٢٦٧ .
(٣) التحرير والتنوير ج ١١ ص ٢٦٧ .
(٤) تفسير أبي السعود ج ٤ ص ١٧١
(٥) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل – للإمام زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ص ١٩١ – ت –عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي الناشر دار عالم الكتب السعودية
(٦) فتح القدير ج ٢ ص ٤٦٧

رسولاً واحداً كقوله { آنا رسولا رب العالمين }فهذا الرسول هو الذي قيل له وبشر المؤمنين » [١]

ولم تذكر الزكاة هنا كما في كثير من الآيات التي اقترنت فيها مع الصلاة، وسبب ذلك أن القوم تركوا بيوتهم وربما أموالهم مثل ما فعل المهاجرون من مكة إلى المدينة فارين بدينهم وأنفسهم ، أما الصلاة فلا يمنعهم منها مانع ولا يصدهم عنها صاد ، والزكاة يطالبون بها عندما يستقرون ويعودون إلى ديارهم آمنين.

وقوله تعالى(وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (النور:٥٦)

ذكر الله في الآية التي قبل هذه الآية أن من وعده لأهل الإيمان بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين الذي ارتضاه لهم ، وشرط ذلك بعبادة الله وحده وعدم الشرك ، ثم ذكر أهم أنواع العبادة في هذه الآية فمن العبادة البدنية إقامة الصلاة ، ومن العبادة المالية إيتاء الزكاة وكأن الصلاة والزكاة وطاعة الرسول – سلى الله عليه وسام – من أهم شروط الاستخلاف والتمكين والأمن ، وفي آية أخري جعل الله –تعالى من أهم ثمار التمكين إقامة الصلاة (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ) (الحج:٤١) فبدأ بالثمرة الأولى وهي إقامة الصلاة .

وعلاما عطف قوله { وأقيموا } ذكر الألوسي عدة أقوال فقال « جوز أن يكون عطفاً على {أطيعوا الله} داخلاً معه في حيز القول والفاصل ليس بأجنبي من كل وجه ، فإنه وعد على المأمور به وبعضه من تتمته. وفي الكشاف ليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال ، لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه والفاصل يؤكد المغايرة ويرشحها لأن المجاورة مظنة الاتصال والاتحاد ، فيكون تكرير الأمر بإطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام للتأكيد، وأكد دون الأمر بطاعة الله تعالى لما أن في النفوس لا سيما نفوس العرب من صعوبة الانقياد للبشر ما ليس فيها من صعوبة الانقياد لله تعالى ، ولتعليق الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه وهي الجمل الواقعة في حيز القول بقوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} كما علق الاهتداء بالإطاعة في قوله تعالى: {وإن تطيعوه تهتدوا} والإنصاف أن هذا العطف بعيد ، بل قال بعضهم: إنه مما لا يليق بجزالة النظم الكريم. وجوز أن يكون عطفاً على {يعبدونني} وفيه تخصيص بعد التعميم، وكان

---

(١) التفسير القيم للإمام ابن القيم ص ٣٠٩ – وانظر مدارج السالكين ج ٣ ص ٩٧ – ٩٩ و بدائع الفوائد ج٤ ص ١٠ و ١١

الظاهر أن يقال يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الرسول لعلهم يرحمون، لكن عدل عن ذلك إلى ما ذكر الخطاب لمزيد الاعتناء ، وحسنه هنا الخطاب في {منكم}. وتعقب بأنه مما لا وجه له لأنه بعد تسليم الالتفات وجواز عطف الإنشاء على الأخبار لا يناسب ذلك؛ وكون الجملة السابقة حالاً أو استئنافاً بيانياً، والذي اختاره كونه عطفاً على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فإنه سبحانه لما ذكر {ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون} (النور: ٥٥) فهم النهي عن الكفر فكأنه قيل: فلا تكفروا وأقيموا الصلاة الخ. » [١]

وذكر صاحب البحر أن في قوله { وأقيموا الصلاة }التفات فقال « والظاهر أن قوله {وَأَقِيمُواْ } التفات من الغيبة إلى الخطاب ويحسنه الخطاب في منكم. » [٢]

{وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ } أمرهم الله سبحانه وتعالى بالذّاتِ بما أمرَهم به بواسطة الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من طاعتِه التي هي طاعتُه تعالى في الحقيقة تأكيداً للأمرِ السَّابق وتقريراً لمضمونه على أنَّ المرادَ بالمُطاع فيه جميعُ الأحكام الشَّرعيةِ المنتظمةِ للآداب المرضيَّةِ أيضاً ، أي وأطيعُوه في كلِّ ما يأمرُكم به وينهاكم عنه أو تكميلاً لما قبله من الأمرين الخاصَّين المتعلّقين بالصَّلاةِ والزَّكاةِ على أنَّ المرادَ بما ذُكر ما عداهما من الشَّرائع أي وأطيعُوه في سائر ما يأمرُكم به الخ،[٣]وقال صاحب التحرير والتنوير « والخطاب موجه للذين آمنوا خاصة بعد أن كان موجهاً لأمة الدعوة على حد قوله تعالى: {يوسفُ أعرضْ عن هذا واستغفري لذنبك}(يوسف: ٢٩)، فالطاعة المأمور بها هنا غير الطاعة التي في قوله: {قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا}(النور: ٥٤) الخ لأن تلك دعوة للمعرضين وهذه ازدياد للمؤمنين. » [٤]«وكررت طاعة الرسول توكيداً لوجوبها. [٥]

وأرى أن الأمر بطاعة الرسول – صلى الله علي وسلم - هنا ليس من باب التكرار ، وإنما أفرد هنا لأن معظم ما يتعلق بتفاصيل الصلاة من عدد الصلوات والركعات والسرية والجهرية والأوقات الضرورية والاختيارية وغير ذلك من بقية التفاصيل موكولة إليه –

---

(١) تفسير الألوسي ج ١٨ ص ٢٠٧
(٢) البحر المحيط ج ٨ ص ٦٦ .
(٣) تفسير أبي السعود ج ٦ ص ١٩٢
(٤) التحرير والتنوير ج ١٨ ص ٢٨٩ .
(٥) البحر المحيط ج ٨ ص ٦٦ .

صلى الله عليه وسلم – وكذلك الزكاة من حيث نصابها ومقدارها وأنواعها ومواقيتها وغير ذلك .

وقد جمعت هذه الآية جميع الأعمال الصالحات فأهمها بالتصريح وسائرها بعموم حذف المتعلق بقوله: {وأطيعوا الرسول} أي في كل ما يأمركم وينهاكم. [١]

ورتب على ذلك رجاء حصول الرحمة لهم، أي في الدنيا بتحقيق الوعد الذي من رحمته الأمن وفي الآخرة بالدرجات العلى. [٢]

وبم يتعلق قوله { لعلكم ترحمون } أجاب عن ذلك أبو السعود بقوله « } متعلّقٌ على الأوَّلِ بالأمرِ الأخيرِ المُشتمل على جميعِ الأوامرِ ، وعلى الثَّانِي بالأوامرِ الثَّلاثةِ ، أي ، افعلُوا ما ذُكر من الإقامةِ والإيتاءِ والإطاعةِ راجينَ أنْ تُرحموا. » [٣]

وفي لسان العرب « (لعلكم تتقون) و(لعله يتذكر) قال معناه كي تتذكروا ، كي تتقوا ، كقولك ابعث إلي بدابتك لعلي أركبها ، بمعنى : كي أركبها ، وتقول انطلق بنا لعلنا نتحدث أي كي نتحدث ، قال ابن الأنباري : لعل تكون ترجيا ، وتكون بمعنى كي ، على رأي الكوفين وينشدون فأبلوني بليتكم لعلي أصالحكم وأستدرج نويا وعسى و لعل من الله تحقيق [٤]

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الروم:٣١)

لما قال حنيفاً أي مائلاً عن غيره قال: {مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ } أي مقبلين عليه، [٥]

وأناب إلى الله أقبل وتاب، والنوبة واحدة النوب ، تقول : جاءت نوبتك ونيابتك ، وهم يتناوبون النوبة فيما بينهم في الماء وغيره [٦] « (منيبين إليه) راجعين إليه من اناب إذا رجع مرة بعد أخرى ، وقيل: منقطعين إليه من الناب » [٧] « ومنه النيابة، ويقال: تناوبوا عمل كذا. وفي حديث عمر: « كنت أنا وجار لي من الأنصار نتناوب النزول على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فينزل يوماً وأنزل يوماً» الحديث، فإطلاق المنيب على المطيع استعارة لتعهد الطاعة تعهداً متكرراً، وجعلت تلك الاستعارة كناية عن مواصلة الطاعة وملازمتها ، قال تعالى: {إن إبراهيم لحليم أوّاه مُنيب في سورة هود . وفسّرت الإنابة

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٨ ص٦٦
(٢) التحرير والتنوير ج ١٨ ص
(٣) تفسير أبي السعود ج ٦ ص ١٩٢
(٤) انظر لسان العرب ج ١١ ص ٤٧٣ و ٤٧٤
(٥) تفسير الرازي ج ٢٥ ص ١٠١
(٦) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣٢
(٧) تفسير البيضاوي ج : ٤ ص: ٣٣٥

أيضاً بالتوبة. وقد قيل: إن ناب مرادف تاب، وهو المناسب لقوله في الآية الموالية دعوا ربهم منيبين إليه}(الروم: ٣٣). » [١]

{مُّنِيبِينَ }: حال من {النَّاس }، ولا سيما إذا أريد بالناس: المؤمنون ، أو من الضمير في: الزموا فطرة الله، وهو تقدير الزمخشري، أو من الضمير في: {فَأَقِمْ }، إذ المقصود: الرسول وأمته، وكأنه حذف معطوف، أي فأقم وجهك وأمتك. وكذا زعم الزجاج في: {الْحَكِيمُ يأَيُّهَا النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ }: أي يا أيها النبي والناس، ودل على ذلك مجيء الحال في {مُّنِيبِينَ } جمعاً، وفي {إِذَا طَلَّقْتُمُ }جاء الخطاب فيه وفي ما بعده. جمعاً، أو على خبر كان مضمرة، أي كونوا منيبين، ويدل عليه قوله بعد { وَلاَ تَكُونُواْ }، وهذه احتمالات منقولة كلها. [٢]

والتعبير بالاسم { منيبين } دون الفعل للدلالة على ثبوت الإنابة وعدم انقطاعها ، والتعبير ب{ إليه } يدل على أن الإنابة لا تكون إلا له لأنها ترجع على صاحبها بالخير العميم فهي تجدد إيمان العبد وتكون سبباً مباشراً لتذكره وبعده عن الزيغ والضلال .

وذكرت الإنابة في مقام آخر في نفس السورة حيث إنها تكون من الناس في وقت الشدة ففريق منهم يستمر عليها وفريق آخر يتخذ الشرك طريقاً (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) (الروم:٣٣) والآية هنا قد أخبرت بشركهم ، أي أنهم متلبسون بالشرك ، أما الآية التي نحن بصددها فقد ورد النهي عن الدخول في زمرة المشركين الذين يحاولون ثني المؤمنين عما هم فيه من الحق .

وجاءت صيغة الإنابة بفعل الأمر وعطف عليها طلب الإسلام لله رب العالمين ، ثم توعد من خالف ذلك بالعذاب وعدم النصرة ، وذلك في قوله تعالى : (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ) (الزمر:٥٤) لما كان الحديث في هذه الآية مع غير المؤمنين جاء الأمر والإنذار والتحذير والتخويف ، ولم يقل { منيبين } كما في الآيتين السابقتين .

وقوله: {وَاتَّقُوهُ } يعني إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتتركوا عبادته ، بل خافوه وداوموا على العبادة (وأقيموا الصلاة) أي كونوا عابدين عند حصول القربة ، كما قلتم قبل ذلك، ثم إنه تعالى قال: {وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } قال المفسرون يعني ولا تشركوا بعد الإيمان ، أي ولا تقصدوا بذلك غير الله ، وههنا وجه آخر وهو أن الله بقوله:

---

(٢) التحرير والتنوير ج ٢١ ص ٨٥ .
(٢) البحر المحيط ج ٨ ص ٣٩٠ .

{مُّنِيبِينَ } أثبت التوحيد الذي هو مخرج عن الإشراك الظاهر وبقوله: {وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } أراد إخراج العبد عن الشرك الخفي ، أي : لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ، ولا تطلبوا به إلا رضاء الله فإن الدنيا والآخرة تحصيل وإن لم تطلبوها إذا حصل رضا الله [١] «. والأمر الذي في قوله {واتقوه وأقيموا الصلاة}مستعمل في طلب الدوام. » [٢]

وقد سبق الحديث عن آية الأنعام وهي قوله { وأن أقيموا الصلاة واتقوه} الآية، ولكن لماذا قدم الأمر بالصلاة وأخر الأمر بالتقوى عكس ما جاء عليه النظم ههنا ؟ أجيب عن ذلك فأقول : إن آية الأنعام جاءت في سياق الرد على المشركين الذين يحاولون صد المؤمنين عن دينهم ، والمناسب في حوارهم تقديم الصلاة لأنها من أهم أركان الدين فإذا أقيمت كما ينبغي أدى ذلك إلى التقوى وهي من أهم ثمارها ، أما الحديث في هذه الآية فكان مع أهل الإيمان مباشرة عقب أمرهم بإقامة الوجه للدين ، والحديث عن الفطرة والإنابة إلى الله والذي يتناسب مع كل ذلك التقوى ، لذلك جعلها لصيقة بما يناسبها ، وأظهر ما يكون الشرك في إقامة الصلاة لذلك جعلها قريبة من قوله { ولا تكونوا من المشركين } . قال القرطبي « بين أن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص فلذلك قال { ولا تكونوا من المشركين} » [٣]

ولم يذكر الأمر بإيتاء الزكاة هنا لأن المقام لا يناسبه ذلك فالحديث عن الفطرة وإقامة الوجه للدين والإنابة والتقوى يتناسب مع الصلاة فقط ، وكذلك لما كان ظهور الشرك الخفي في الصلاة أوضح وأبين من ظهوره في الزكاة اقتصر على ذكر الصلاة .

وقوله تعالى (أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المجادلة:١٣)

في الآية التي قبل هذه الآية أمر الله المؤمنين عند الرغبة في مناجاة الرسول - صلى الله عليه وسلم – بتقديم صدقة للفقراء ، وفي هذا بيان لمنزلته –صلى الله عليه وسلم - عند ربه ، وحرص على وقته حتى يخلو لأهله وعبادته الخاصة في السر (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المجادلة:١٢)

---

(١) تفسير الرازي ج ٢٥ ص ١٠١
(٢) التحرير والتنوير ج ٢١ ص ٩٥ .
(٣) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣٢

فتصدقوا قدامها، مستعار ممن له يدان ، وفي هذا الأمر تعظيم الرسول – صلى الله عليه وسلم - وإنفاع الفقراء والنهي عن الإفراط في السؤال والميز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا ، واختلف في أنه للندب أو للوجوب لكنه منسوخ بقوله أأشفقتم [١]

وقيل في سبب نزولها « أخرج الترمذي وحسنه وغيره عن علي قال: لما نزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) قال لي النبي - صلى الله عليه وسلم - ما ترى ديناراً قلت : لا يطيقونه قال : فنصف دينار، قلت : لا يطيقونه ، قال فكم قلت : شعيرة ، قال : إنك لزهيد ، فنزلت (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) الآية فبي خفف الله عن هذه الأمة ، قال الترمذي حسن» [٢] «

وجعل صاحب التحرير والتنوير الاستفهام في قوله (أأشفقتم) مفيداً للتوبيخ [٣] ، ومن الأفضل أن يقال أنه للتنبيه إذ كيف يوبخهم وهو – تعالى قد تاب عليهم ، كما أن هذا التشريع لم يمكث سوى ساعات ، و حتى لو رقى إلى درجة الإنكار فلا يفسر على أنه للتوبيخ .

والرازي قد تكفل بالرد على احتمال كون هذا يدل على تقصير الصحابة – رضي الله عنهم – بقوله « فإن قيل: ظاهر الآية يدل على تقصير المؤمنين في ذلك التكليف ، وبيانه من وجوه أولها: قوله: {أَن تُقَدّمُواْ بَيْنَ } وهو يدل على تقصيرهم وثانيها: قوله: {فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ } وثالثها: قوله: {وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ } قلنا: ليس الأمر كما قلتم ، وذلك لأن القوم لما كلفوا بأن يقدموا الصدقة ويشغلوا بالمناجاة ، فلا بد من تقديم الصدقة، فمن ترك المناجاة يكون مقصراً ، وأما لو قيل بأنهم ناجوا من فهذا أيضاً غير جائز، لأن المناجاة لا تمكن إلا إذا مكن الرسول من المناجاة ، فإذا لم يمكنهم من
ذلك لم يقدروا على المناجاة، فعلمنا أن الآية لا تدل على صدور التقصير» [٤]

ومعنى { أأشفقتم } أي أخفتم الفقر من تقديم الصدقة أو أخفتم التقديم لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر [٥]. وقد علم من الاستفهام التوبيخي أن بعضاً لم يفعل ذلك. [٦]

---

(١) تفسير البيضاوي ج ٥ ص ٣١٢
(٢) لباب النقول ج ١ ص ٢٠٧
(٣) انظر التحرير والتنوير ج ٢٨ ص٤٦ .
(٤) تفسير الرازي ج ٢٩ ص٤٩٧
(٥) انظر تفسير البيضاوي ج ٥ ص ٣١٣
(٦) التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٤٧ .

وأيـن مفعـول { أأشـفقتم } قـال صـاحب روح المعـاني « فمفعـول أشـفقتم محـذوف ، و(أن)على إضمار حرف التعليل ، ويجوز أن يكون المفعول أن تقدموا فلا حذف أي أخفتم تقديم الصدقات ، لتوهم ترتب الفقر عليه» [١]قال القرطبي وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به .... وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل [٢] و (إذ) ظرفية مفيدة للتعليل ، أي فحين لم تفعلوا فأقيموا الصلاة. [٣]

وقد أفردت الصدقة في الآية الأولى حيث قال { فقدموا بين يدي نجواكم صدقة } ثم جمعت في الآية الثانية ، وعلل البيضاوي لذلك بقوله « وجمع صدقات لجمع المخاطبين ، أو لكثرة التناجي » [٤] وجعل صاحب روح المعاني من الأولى أن يكون قد « جمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن في الحقيقة بتقديم صدقة واحدة ، لأنه ليس مظنة الفقر من استمرار الأمر وتقديم صدقات ، وهذا أولى مما قيل إن الجمع لجمع المخاطبين إذ يعلم منه وجه إفراد الصدقة فيما تقدم على قراءة الجمهور» [٥]

والفاء في قوله { فإذ لم تفعلوا} لتفريع ما بعدها على الاستفهام ، وجملة { وتاب الله عليكم }اعتراضية وجئ بها لبيان فضل الله عليهم وعدم وجود الحرج لما بدر منهم ، حتى يطمئنوا، وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه ، لما رأى منهم مما قام مقام توبتهم و{ إذ } تتعلق بمحذوف دل عليه قوله { وتاب الله عليكم } وتقديره : خففنا عنكم وأعفيناكم من أن تقدموا صدقة قبل مناجاة الرسول- صلى الله عليه وسلم - ، والفاء في قوله { فأقيموا الصلاة للعطف على الكلام المقدر [٦]

ومعنى قوله { فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة } أي لا تفرطوا في أدائهما ، ثم أمروا بطاعة الله ورسوله ليكون من باب العام بعد الخاص ، وقيل لهم ذلك حتى لا يحسبوا أن كلما ثقل عليهم فعل مما كلفوا به يعفون منه [٧] وقال أبو السعود « (وأقيموا الصلاة وآتوا وآتوا الزكاة) ، أي : فإذ فرطتم فيما أمرتم به من تقديم الصدقات فتداركوه بالمثابرة على

---

(١) روح المعاني ج ٢٨ ص ٣١
(٢) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٣٠٣
(٣) التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٤٧ .
(٤) تفسير البيضاوي ج ٥ ص ٣١٣
(٥) روح المعاني ج ٢٨ ص٣١
(٦) انظر التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٤٧ . وانظر البيضاوي ج ٥ ص ٣١٣
(٧) انظر البيضاوي ج ٥ ص ٣١٣ وانظر التحرير والتنوير ج ص

إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ،(وأطيعوا الله ورسوله) في سائر الأوامر فإن القيام بها كالجابر لما وقع في ذلك من التفريط » [١]

والأمر بإقامة الصلاة في الآية الكريمة هو الذي بدأ به ، وهذا يدل على أهمية الصلاة ومنزلتها كفعل بدني ، وقدمها على الزكاة لأنها لا تسقط بحال من الأحوال بعكس الزكاة التي لا يطالب بها المسلم إلا بتوفر أسبابها من بلوغ النصاب ، وأن يحول الحول إلى غير ذلك مما هو مفصل في كتب الفقه ، ومجيء الأمر بالزكاة هنا لأنه يتفق تمام الاتفاق مع سياق هذه الآية والتي قبلها ، حيث طلب منهم تقديم الصدقة عند مناجاته – صلى الله عليه وسلم – ثم كان منهم الخوف من ذلك فعفا الله عنهم وتاب عليهم ، وبقيت زكاة الفريضة كما هي ، فالعفو عن تقديم الصدقة عند المناجاة لا يعفيهم عن زكاة الفريضة .

وما المراد بقوله { وآتوا الزكاة } إذا فرضت الزكاة قبل صدقة النجوى « على الأصح كان فعل {آتوا} مستعملاً في طلب الدوام مثل فعل {فأقيموا}. » [٢]

(والله خبير بما تعملون) ، يقول جل ثناؤه والله ذو خبرة وعلم بأعمالكم وهو محصيها عليكم ليجازيكم بها [٣] -- وقيل هي -- وجملة والله خبير بما تعملون} تذييل لجملة {فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} وهو كناية عن التحذير من التفريط في طاعة الله ورسوله.[٤]

وأقم الصلاة

قوله تعالى :(وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) (هود:١١٤)

وقال صاحب التحرير والتنوير في صلة الآية بما قبلها « انتقل من خطاب المؤمنين إلى خطاب النّبي- صلى الله عليه وسلم - وهذا الخطاب يتناول جميع الأمّة بقرينة أنّ المأمور به من الواجبات على جميع المسلمين، لا سيما وقد ذكر معه ما يناسب الأوقات المعيّنة للصلوات الخمس، »[٥] وقال صاحب فتح القدير « لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خص من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان » [٦]

---

(١) تفسير أبي السعود ج : ٨ ص : ٢٢١
(٢) التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٤٧ .
(٣) تفسير الطبري ج٢٨ ص ٢٢
(٤) التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٤٧ .
(٥) التحرير والتنوير ج ١٢ ص ١٧٨ - ١٧٩
(٦) فتح القدير ج٢ ص ٥٣١

وألاحظ الخطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم - ورد في عدة مواضع من هذه السورة مثل الأمر بالاستقامة والأمر بإقامة الصلاة والأمر بالصبر ، فلا عجب أن يقول - صلى الله عليه وسلم - شيبتني هود ،

وأرى أن من بديع النظم في هذه الآيات أن الخطاب بفعل الخير وجه للنبي – صلى الله عليه وسلم – وأمته تابعة له ، والخطاب بترك الشر وجه لأمته وقد فطن إلى هذا المعنى صاحب البحر فقال « وانظر إلى الأمر والنهي في هذه الآيات، حيث جاء الخطاب في الأمر، {وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ }، وأقم الصلاة، موحداً في الظاهر، وإن كان المأمور به من حيث المعنى عاماً، وجاء في النهي: {وَلاَ تَرْكَنُواْ } موجهاً إلى غير الرسول صلى الله عليه وسلم -، مخاطباً به أمته فحيث كان بأفعال الخير توجه الخطاب إليه، وحيث كان النهي عن المحظورات عدل عن الخطاب عنه إلى غيره من أمته ، وهذا من جليل الفصاحة. »[١]

وأما سورة هود فلما ذكر الأمم وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظات البطش بأعدائه فلو ماتوا من الفزع لحق لهم ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلطف بهم في تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه، وأما أخواتها فما أشبهها من السور مثل الحاقة وسأل سائل وإذا الشمس كورت »[٢]

وهذا يدل دلالة واضحة على أهمية الصلاة ومنزلتها ومكانتها فالمؤمن بين الصلوات الخمس لا يسلم من اقتراف الصغائر فتأتي الصلاة لتكون بمثابة المطهر لذلك والمكفر له ، وبهذا يعلم العبد أن العبادة التي يكلف بها نفعها راجع إليه ، وناهيك عما ادخره في الآخرة من الأجر والمثوبة .

(وأقم الصلاة طرفي النهار) لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ، وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان وإليها يفزع في النوائب ، وكان النبي- صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة [٣]

وقد قرنت الصلاة بالصبر في عدة مواضع منها هذا الموضع « وقال تعالى (فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار) وقال تعالى (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل) وقال

---

(١) البحر المحيط ج ص
(٢) تفسير القرطبي ج ٩ ض ١
(٣) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٠٩

تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وقال تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين). »[١] وهذا يشير إلى أن الصلاة في إقامتها وطهارتها وتعديل أركانها والخشوع فيها والمحافظة عليها في أوقاتها كل ذلك يحتاج إلى صبر جميل .

وقد تعددت آراء المفسرين في المراد بالصلاة في هذه الآية وسأكتفي بما روى عمرو عن الحسن في قوله تعالى طرفي النهار قال صلاة الفجر والأخرى الظهر والعصر (وزلفا من الليل) قال المغرب والعشاء ، فعلى هذا القول قد انتظمت الآية الصلوات الخمس . [٢]

وجملة {إنّ الحسنات يذهبن السّيئات} مسوقة مساق التّعليل للأمر بإقامة الصّلوات، وتأكيد الجملة بحرف {إنّ} للاهتمام وتحقيق الخبر. و{إنّ} فيه مفيدة معنى التّعليل والتفريع، وهذا التعليل مؤذن بأنّ الله جعل الحسنات يذهبن السيّئات، والتّعليل مشعر بعموم أصحاب الحسنات لأنّ الشأن أن تكون العلّة أعم من المعلول مع ما يقتضيه تعريف الجمع باللاّم من العموم [٣]

(إن الحسنات يذهبن السيئات) قال الواسطي : أنوار الطاعات تذهب بظلم المعاصي ، وقال يحيى بن معاذ : إن الله سبحانه لم يرض للمؤمن بالذنب حتى ستر ولم يرض بالستر حتى غفر ولم يرض بالغفران حتى بدل فقال سبحانه (إن الحسنات يذهبن السيآت) وقال تعالى (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) [٤]

وإذهاب السيّئات يشمل إذهاب وقوعها بأن يصير انسياق النّفس إلى ترك المنهيات سَهْلاً وهيّناً كقوله تعالى: {إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر}(العنكبوت: ٤٥) ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها. ويشمل أيضاً محو إثمها إذا وقعت، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها فضلاً من الله على عباده الصالحين. [٥]

---

(١) دقائق التفسير ج ٢ ص ٣٠٠:: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس -- ولادة المؤلف :: ٦٦١-- وفاة المؤلف :: ٧٢٨-- دار النشر :: مؤسسة علوم القرآن-- مدينة النشر :: دمشق -سنة النشر :: ١٤٠٤-- رقم الطبعة :: الثانية-- اسم المحقق :: د. محمد السيد الجليند

(٢) أحكام القرآن ٢ ج ٣ ص ٢٤٩

(٣) التحرير والتنوير ج ١٢ ص ١٨٠

(٤) روح المعاني ج ١٢ ص ١٦٩

(٥) التحرير والتنوير ج ١٢ ص ١٨٩

{ذلك ذكْرى للذّاكرين} أيْ تذْكرة للّذي شأنه أن يذكر ولم يكن شأنه الإعراض عن طلب الرشد والخير، وهذا أفاد العموم نصّاً. [١]

قيل : (ذلك ذكرى للذاكرين) هم الذين يذكرون الله في السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: لما نزع الذي قبل المرأة تذكر فذلك قوله (ذكرى للذاكرين)[٢]

(واصبر) على مشاق ما أمرت به في تضاعيف الأوامر السابقة وأما ،ما نهى عنه من الطغيان والركون إلى الذين ظلموا فليس في الانتهاء عنه مشقة فلا وجه لتعميم الصبر له اللهم إلا أن يراد به ما لا يمكن عادة خلو البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة المأمور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية إلى من وجد منه ظلم ما فإن في الإحتراز عن أمثاله من المشقة ما لا يخفى فإن الله لا يضيع أجر المحسنين [٣]

(واصبر) بالله سبحانه في الاستقامة ومع الله تعالى بالحضور في الصلاة وعدم الركون إلى الغير[٤]

(فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) أي يوفيهم أجور أعمالهم من غير بخس أصلا ، وإنما عبر عن ذلك بنفي الإضاعة مع أن عدم إعطاء الأجر ليس بإضاعة حقيقة ، كيف لا والأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه ، وإنما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة فائدة عامة لكل من يتصف به وهو تعليل للأمر بالصبر ، وفيه إيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان .[٥]

وقوله تعالى : (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً) (الاسراء:٧٨)

قبل هذه الآية تحدثت الآيات عن الإلهيات من حيث الإيمان بها ، والنبوات من حيث التصديق بها ، والمعاد وما فيه من حساب للاستعداد له ، ثم جاء في هذه الآية بالأمر

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٢ ص ١٨١
(٢) فتح القدير ج ٢ ص ٥٣٣
(٣) تفسير أبي الصعود ج ٤ ص ٢٤٦
(٤) روح المعاني ج ١٢ ص ١٦٩
(٥) تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٢٤٦

بإقامة الصلاة لأنها أهم ركن من أركان الإسلام ، والمتأمل فيها يدرك أنها تشتمل على سائر أركان الإسلام من شهادة وصيام وزكاة وحج ، وهي العبادة الوحيدة التي تلازم المؤمن في كل وقت ، ولا تسقط بأي عذر من الأعذار .فهي ثابتة ودائمة .

ويقول الرازي في تناسب هذا النظم وتناسقه :« المسألة الأولى: في النظم وجوه. الأول: أنه تعالى لما قرر أمر الإلهيات والمعاد والنبوات ، أردفها بذكر الأمر بالطاعات بعد الإيمان ، وأشرف الطاعات بعد الإيمان الصلاة فلهذا السبب أمر بها. الثاني: أنه تعالى لما قال: {وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ } أمره تعالى بالإقبال عل عبادته لكي ينصره عليهم فكأنه قيل له لا تبال بسعيهم في إخراجك من بلدتك ولا تلتفت إليهم واشتغل بعبادة الله تعالى وداوم على أداء الصلوات فإنه تعالى يدفع مكرهم وشرهم عنك ، ويجعل يدك فوق أيديهم ودينك غالباً على أديانهم ، ونظيره قوله في سورة طه: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ } (طه: ١٣٠) وقال: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } (الحجر: ٩٧ ـ ٩٩) والوجه الثالث: في تقرير النظم أن اليهود لما قالوا له اذهب إلى الشام فإنه مسكن الأنبياء عزم صلى الله عليه وسلم على الذهاب إليه فكأنه قيل له المعبود واحد في كل البلاد وما النصرة والدولة إلا بتأييده ونصرته فداوم على الصلوات ، وارجع إلى مقرك ومسكنك وإذا دخلته ورجعت إليه فقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي في هذا البلد سلطاناً نصيراً في تقرير دينك وإظهار شرعك والله أعلم [١]

وقال صاحب التحرير والتنوير في مناسبتها لما قبلها « فالجملة استئناف ابتدائي. ومناسبة موقعها عقب ما قبلها أن الله لما امتن على النبي بالعصمة وبالنصر ذكره بشكر النعمة بأن أمره بأعظم عبادة يَعبده بها، وبالزيادة منها طلباً لازدياد النعمة عليه، كما دل عليْه قوله في آخر الآية (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) (الإسراء: ٧٩).» [٢]

ويشير صاحب التحرير والتنوير إلى مناسبة مجيء هذه الآية في سورة الإسراء « كان شَرْع الصلوات الخمس للأمة ليلة الإسراء، كما ثبت في الحديث الصحيح، ولكنه كان غير مثبت في التشريع المتواتر إنما أبلغه النبي أصحابه فيوشك أن لا يعلمه غيرهم ممن يأتي من المسلمين. وأيضاً فقد عينت الآية أوقاتاً للصلوات بعد تقرر فرضها، فلذلك جاءت

---

(١) تفسير الرازي ج ٢١ ص ٣٨٢
(٢) التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٨١

هذه الآية في هذه السورة التي نزلت عقب حادث الإسراء جمعاً للتشريع الذي شرع للأمة أيام مئذٍ المبتدأ بقوله تعالى: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) الآيات (الإسراء : ٢٣).[١] والإقامة: مجاز في المواظبة والإدامة. [٢]

والخطاب في الآية موجه له – صلى الله عليه وسلم – وأمته داخلة معه لأن الأمر بإقامة الصلاة تشريع عام وليس من خصائصه قال صاحب التحرير والتنوير « فالخطاب بالأمر للنبي ، ولكن قد تقرر من اصطلاح القرآن أن خطاب النبي بتشريعٍ تدخُل فيه أمته ، إلا إذا دل دليل على اختصاصه بذلك الحكم، وقد عَلم المسلمون ذلك وشاع بينهم بحيث ما كانوا يسألون عن اختصاص حكم إلا في مقام الاحتمال القوي، كمن سأله: ألنا هذه أمْ للأبد؟ فقال: بل للأبد. » [٣]

الدلوك هو الزوال من حركة إلى حركة ، فشمل صلاة الظهر والعصر ، وغسق الليل يشمل صلاة المغرب وصلاة العشاء فبقيت صلاة الفجر وهي التي عناها قوله (وقرآن الفجر)

وقال صاحب التحرير والتنوير والدلوك: من أحوال الشمس، فوَرد بمعنى زوال الشمس عن وسط قوس فَرْضيّ في طريق مسيرها اليومي. وورد بمعنى: مَيل الشمس عن مقدار ثلاثة أرباع القوس وهو وقت العصر، وورد بمعنى غروبها، فصار لفظ الدلوك مشتركاً في المعاني الثلاثة ، واللام في (لدلوك الشمس} لام التوقيت، وهي بمعنى (عند). [٤]

والغسق: الظلمة، وهي انقطاع بقايا شعاع الشمس حين يماثل سواد أفق الغروب سواد بقية الأفق وهو وقت غيبوبة الشفق، وذلك وقت العشاء، ويسمى العتمة، أي الظلمة.[٥]

ثم عطف {قرآن الفجر} على {الصلاة}. والتقدير: وأقم قرآن الفجر، أي الصلاة به. كذا قدر الفراء وجمهور المفسرين ، ليُعلم أن لكل صلاة من تلك الصلوات قرآناً كقوله: {فاقرءوا ما تيسر من القرآن (المزمّل:[٦]

ويجوز أن يكون عطف (وقرآن الفجر} عطفَ جملة والكلام على الإغراء، والتقدير: والزَمْ قرآنَ الفجر، قاله الزجاج. فيعلم أن قراءة القرآن في كل صلاة حتم. [١]

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٨١
(٢) التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٨٢
(٣) التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٨١
(٤) التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٨٢
(٥) التحرير والتنوير ج ١٥ ص١٨٢
(٦) التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٨٣

وخص قرآن الفجر بأنه مشهود لأن النفس تكون صافية ولم تكدرها ظلمة المعصية ، والقرآن له إيقاعه المؤثر وتأثيره الفعال في هذا الوقت الذي أذكي وأصفى ما تكون النفس ، فقدر ولو يسير يتلوه المؤمن في هذا الوقت لهو كافٍ في المحافظة على شفافية النفس ونقاء السريرة إلى أن يأتي فجر اليوم التالي .

وقال صاحب التحرير والتنوير وخص ذكر ذلك بصلاة الفجر دون غيرها لأنها يجهر بالقرآن في جميع ركوعها، ولأن سنتها أن يقرأ بسور من طوال المفصل، فاستماع القرآن للمأمومين أكثر فيها ، وقراءته للإمام والفذ أكثر أيضاً. (٢)

قال الرازي : فكل من له ذوق سليم وطبع مستقيم إذا قام من منامه وأدى صلاة الصبح في أول الوقت واعتبر اختلاف أحوال العالم من الظلمة الحاصلة إلى النور، ومن السكون إلى الحركة فإنه يجد في قلبه روحاً وراحة ومزيداً في نور المعرفة وقوة اليقين فهذا هو المراد من قوله: (٣) – ويجوز أن يكون المراد -- « الترغيب في أن تؤدي هذه الصلاة بالجماعة ويكون المعنى كونه مشهوداً بالجماعة الكثيرة ومزيد التحقيق فيه أنا بينا أن تأثير هذه الصلاة في تصفية القلب وفي تنويره أكثر من تأثير سائر الصلوات » (٤)

وخص هذين الوقتين لأن فيهما إقبال الليل وإدبار النهار ، و إدبار النهار وإقبال الليل ، كما أن لهما وقع عميق في نفس المؤمن ، فدخول الليل بظلامه الدامس ومطلع النور مع انقشاع الظلمة ذلك بلا ريب يؤدي إلى التفكر والتأمل في نواميس الكون التي لا تتغير ولا تتبدل (لا **الشَّمْسُ** يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يّس:٤٠)

وجملة {إن قرآن الفجر كان مشهوداً} استئناف بياني لوجه تخصيص صلاة الصبح باسم القرآن بأن صلاة الفجر مشهودة، أي محضورة. وفُسِّر ذلك بأنها تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، كما ورد في الحديث: «وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح». وذلك زيادة في فضلها وبركتها. وأيضاً فهي يحضرها أكثر المصلين لأن وقتها وقت النشاط وبعدها ينتظر الناس طلوع الشمس ليخرجوا إلى أعمالهم فيكثر سماع القرآن حينئذٍ. (٥)

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٨٣
(٢) التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٨٣
(٣) تفسير الرازي ج٢١ ص ٣٨٣
(٤) تفسير الرازي ج ٢١ ص ٣٨٣
(٥) التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٨٣

وهذا مجمل في كيفية الصلوات. ومقادير ما تشتمل عليه من القرآن بينته السنّة المتواترة والعرف في معرفة أوقات النهار والليل.[١]

قوله تعالى (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) (طه: ١٤)

لا ريب أن العبودية لله وحده هي أساس العقيدة الصحيحة ، لذلك نرى الآية الكريمة تؤكد هذا الأمر بعدة مؤكدات ، منها الإثبات المؤكد (إنني أنا الله)، ومنها القصر المستفاد من النفي والاستثناء (لا إله إلا أنا) فقد أثبت الألوهية لله – تعالى – ثم نفاها عن سواه .

وقال صاحب التحرير والتنوير: وتأكيد الجملة بحرف التأكيد لدفع الشك عن موسى؛ نزل منزلة الشاكّ لأن غرابة الخبر تعرّض السامع للشك فيه.وتوسيط ضمير الفصل بقوله {إنَّني أنا الله} لزيادة تقوية الخبر، وليس بمفيد للقصر، إذ لا مقتضى له هنا لأن المقصود الإخبار بأنّ المتكلّم هو المسمى الله، فالحمل حمل مواطاة لا حملُ اشتقاق. وهو كقوله تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم}(المائدة: ٧٢).[٢]

وأفضل أن يكون ضمير الفصل مفيداً للقصر والدليل التصريح به بعد ذلك (لا إله إلا أنا) فهو تأكيد بعد تأكيد حتى ولو كان ظاهر الخطاب لنبي الله موسى – عليه السلام – فبنوا إسرائيل معنيون بهذا وهم في حاجة إلى العديد من التأكيدات .

ولكن لماذا جاء الضمير مفرداً هنا (إنني أنا الله) وأيضاً في آيات أخرى مثل قوله : (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ) (النحل:٢) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الانبياء:٢٥) وفي آيات أخرى أتى به جمعاً مثل قوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر:٩) (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) (مريم:٤٠) (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) (يّس:١٢) (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ) (قّ:٤٣) (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً) (الانسان:٢٣) والعلة من ذلك أن المقامات التي يتحدث فيها – سبحانه -عن الوحدانية أو العبادة يناسبا ضمير الإفراد ، والمقامات التي تحتاج إلى قدرة وعظمة يناسبها ضمير الجمع – فسبحان من هذا كلامه .

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٨٣
(٢) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٢٠٠

وقال البيضاوي في إعراب قوله (إنني أنا الله لا إله إلا أنا) بدل مما يوحى دال على أنه مقصور على تقرير التوحيد الذي هو منتهى العلم [١]

وهناك علة من إحضار لفظ الجلالة بعينه وهو علم على الذات ، قال صاحب التحرير والتنوير « ووقع الإخبار عن ضمير المتكلم باسمه العلَم الدالّ على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد. وذلك أول ما يجب علمه من شؤون الإلهية، وهو أن يعلم الاسم الذي جعله الله علَماً عليه لأن ذلك هو الأصل لجميع ما سيُخاطب به من الأحكام المبلغة عن ربّهم.وفي هذا إشارة إلى أنّ أول ما يتعارف به المتلاقون أن يعرفوا أسماءهم، فأشار الله إلى أنه عالم باسم كليمه وعلّم كليمه اسمه، وهو الله.. [٢]

واستدل الرازي بهذه الآية على أن علم الأصول مقدم على علم الفروع حيث قال وقوله {إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لا إِلَـهَ إلا أَنَاْ فَاعْبُدْنِي } يدل على أن علم الأصول مقدم على علم الفروع لأن التوحيد في علم الأصول والعبادة من علم الفروع ، وأيضاً الفاء في قوله: {فَاعْبُدْنِي } تدل على أن عبادته إنما لزمت لإلهيته وهذا هو تحقيق العلماء أن الله هو المستحق للعبادة. [٣]

ويشير صاحب التحرير والتنوير إلى الغرض من مجيء الخبر الثاني لـ(إن) بقوله وجملة {لا إله إلاَّ أنا} خبر ثان عن اسم (إنّ). والمقصود منه حصول العلم لموسى بوحدانية الله تعالى.ثمّ فرع على ذلك الأمر بعبادته. [٤]

والفاء في قوله تعالى فاعبدني لترتيب المأمور به على ما قبلها فإن اختصاص الألوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل[٥] والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل [٦] . – والعبادة عامة تشمل جميع أنشطة الحياة ، من اتباع الأوامر واجتناب النواهي .

ثم خص الصلاة من بين سائر أنواع العبادة لأنها من أكمل صورها ، وهي أفضل وسيلة من وسائل الذكر ، وهو أعظم غاية من غاياتها ، وهي تتجرد من كل شائبة ، ولأنها يتهيأ فيها العبد لله وحده ، وتتجمع كل هذه الخصال للاتصال بالله – سبحانه وتعالى – قال أبو السعود « خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة لفضلها

---

(١) تفسير البيضاوي ج٤ ص ٤٤
(٢) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٩٩
(٣) تفسير الرازي ج٢٢ ص ٢١
(٤) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ٢٠٠
(٥) تفسير أبي السعود ج ٦ ص ٨
(٦) تفسير البيضاوي ج ٤ ص ٤٤

وإنافتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وذلك قوله تعالى لذكري أي لتذكرني فإن ذكري كما ينبغي لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة [١]..

وقيل المعنى أي حافظ بعد التوحيد على الصلاة وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة إذ هي تضرع إلى الله تعالى وقيام بين يديه وعلى هذا فالصلاة هي الذكر وقد سمى الله تعالى الصلاة ذكرا في قوله (فاسعوا إلى ذكر الله) [٢]

وإذا قيل لماذا لم تذكر الزكاة هنا أقول : وإلم تذكر صراحة فقد تضمنها قوله (فاعبدني) والزكاة نوع من العبادة ، وكذلك المقام هنا مقام عبودية لله وحده والذي يناسبه الصلاة . فالزكاة وإن كانت لله إلا أن الفقير محل لها ولا تتحقق ولا نوجد إلا به ، وهذا عكس الصلاة .

وقوله تعالى (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) (العنكبوت:٤٥)

جاءت هذه الآية الكريمة بعد أن ذكر الله بعض أنبيائه ، وما حدث من تكذيب أقوامهم وما حل بالمكذبين من صنوف العقاب وألوان العذاب ، كل حسب ذنبه ، فبعد هذا العرض الموجز والذي قصد منه أخذ العظة والعبرة ، جاءت هذه الآية لتسلي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى لا يتأثر بما حدث لإخوانه من الأنبياء وبما حدث لأقوامهم .

وما مناسبة التلاوة للتسلية ، نعم في التلاوة تسلية ما بعدها تسلية ، وتثبيت ما بعده تثبيت (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) (الفرقان:٣٢) فهو - صلى الله عليه وسلم - كلما أعرض عنه القوم وشعر بالضيق والحزن كرر تلاوته ومع التلاوة والتكرار يرتفع الحرج ويزول الحزن ، وهذا له – صلى الله عليه وسلم - ولسائر أفراد الأمة .

أتل ما أوحى إليك من الكتاب تقربا إلى الله تعالى بقراءته وتذكرا لما في تضاعيفه من المعاني وتذكيرا للنا س وحملا لهم على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق [٣]

الصلاة التي تقام بمعنى أنها استوفت كل شروطها فهي بلا ريب تنهى عن الفحشاء

---

(١) تفسير أبي الصعود ج ٦ ص ٨
(٢) تفسير القرطبي ج١١ ص ١٧٧
(٣) تفسير أبي السعود ج٧ ص ٤١

والمنكر ، وكل ما حدث فيها خلل قل نهيها عن الفحشاء والمنكر فمن أهم الثمرات المرجوة من إقامة الصلاة انتهاء صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، وذلك من أظهر وأعظم المقاييس التي يعرف بها القبول أو عدمه .

والأمر بإقامة الصلاة المراد به المداومة والمحافظة على دلك حتى لا ينشغل المسلم بشيء آخر مهما كانت أهميته ، قال أبو السعود : « وأقم الصلاة أي داوم على إقامتها وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة ، وكان أمره عليه الصلاة والسلام بإقامتها متضمنا لأمر الأمة بها علل بقوله تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء) [١]

ولكن كيف تقوم الصلاة بالنهي عن الفحشاء والمنكر، وهل هذا النهي على سبيل الحقيقة أم المجاز، اختلف أهل التفسير في ذلك ، قال البيضاوي « (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) بأن تكون سببا للانتهاء عن المعاصي حال الاشتغال بها وغيرها من حيث إنها تذكر الله وتورث النفس خشية منه ، روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصلوات ولا يدع شيئا من الفواحش إلا ارتكبه فوصف له عليه السلام فقال أن صلاته ستنهاه فلم يلبث أن تاب » [٢] وهذا توجيه حسن من اليضاوي – رحمه الله - لأن الصلاة ما فائدتها إن كان صاحبها مصراً على المعاصي ، ولم تفلح في زجره وارعوائه ، وتقويم سلوكه ، وتغيير حاله ، وتقوية يقينه ، ورقة قلبه وغير ذلك من الفوائد الجليلة التي يشعر بها المقيم المتقن .

وإذ قد كانت حقيقة النهي غير قائمة بالصلاة تعيّن أن فعل {تنهى} مستعمل في معنى مجازي بعلاقة أو مشابهة. والمقصود: أن الصلاة تيسر للمصلي ترك الفحشاء والمنكر. وليس المعنى أن الصلاة صارفة المصلي عن أن يرتكب الفحشاء والمنكر فإن المشاهد يخالفه إذ كم من مصلّ يقيم صلاته ويقترف بعض الفحشاء والمنكر [٣]

وقال صاحب التحرير والتنوير« وعلل الأمر بإقامة الصلاة بالإشارة إلى ما فيها من الصلاح النفساني فقال {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر}، فموقع {إن} هنا موقع فاء التعليل ولا شك أن هذا التعليل موجّه إلى الأمة لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - معصوم من الفحشاء والمنكر فاقتصر على تعليل الأمر بإقامة الصلاة دون تعليل الأمر

---

(١) تفسير أبي السعود ج ٧ ص ٤١
(٢) تفسير البيضاوي ج ٣ ص ٣١٨
(٣) التحرير والتنوير ج ٢٠ ص ٢٥٨ .

بتلاوة القرآن لما في هذا الصلاح الذي جعله الله في الصلاة من سِرّ إلهي لا يهتدي إليه الناس إلا بإرشاد منه تعالى؛ فأخبر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والمقصود أنها تنهى المصلي. » [١]

ويفضل صاحب التحرير والتنوير أن يكون النهي هنا في الآية على سبيل المجاز حيث يقول « والوجه عندي في معنى الآية: أن يُحمل فعل {تنهى} على المجاز الأقرب إلى الحقيقة وهو تشبيه ما تشتمل عليه الصلاة بالنهي، وتشبيه الصلاة في اشتمالها عليه بالناهي، ووجه الشبه أن الصلاة تشتمل على مذكّرات بالله من أقوال وأفعال من شأنها أن تكون للمصلي كالواعظ المذكر بالله تعالى إذ ينهى سامعه عن ارتكاب ما لا يرضي الله. وهذا كما يقال: صديقك مرآة ترى فيها عيوبك. ففي الصلاة من الأقوال تكبير لله وتحميده وتسبيحه والتوجيه إليه بالدعاء والاستغفار وقراءة فاتحة الكتاب المشتملة على التحميد والثناء على الله والاعتراف بالعبودية له وطلب الإعانة والهداية منه واجتناب ما يغضبه وما هو ضلال، وكلها تذكر بالتعرض إلى مرضاة الله والإقلاع عن عصيانه وما يفضي إلى غضبه فذلك صدّ عن الفحشاء والمنكر . ، وإذا كانت الآية مسوقة للتنويه بالصلاة وبيان مزيتها في الدين تعين أن يكون المراد أن الصلاة تحذر من المنكر» [٢]

ولكن لا يوجد ما يمنع من الحمل على الحقيقة ، خاصة وأن المخير بذلك هو رب العالمين ، مثل ما يأمر الله –تعالى – الأرض فتأتمر وينهاها فتنتهي ، فهو سبحانه يخلق فيها القدرة على النهى ما دامت قد أديت على أكمل وجه . (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (هود: ٤٤) (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)(سبأ: ١٠)

وأشار صاحب التحرير والتنوير إلى تفاوت الناس في الانتهاء ، وأشار أيضاً إلى الحكمة من توزيع الصلوات على أوقات مختلفة فقال « ثم الناس في الانتهاء متفاوتون، وهذا المعنى من النهي عن الفحشاء والمنكر هو من حكمة جعل الصلوات موزعة على أوقات من النهار والليل ليتجدد التذكير وتتعاقب المواعظ، وبمقدار تكرر ذلك تزداد خواطر التقوى في النفوس وتتباعد النفس من العصيان حتى تصير التقوى ملكة لها. ووراء ذلك خاصية إلهية جعلها الله في الصلاة يكون بها تيسير الانتهاء عن الفحشاء

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٠ ص ٢٥٨.
(٢) التحرير والتنوير ج ٢٠ ص ٢٥٩.

والمنكر.»[١] ولم يشرا بن عاشور إلى العلة من تفاوت الناس في الانتهاء ، ولعلها أن الناس متفاوتون في إتقان الإقامة . والله أعلم .

والقرآن الكريم يأتي بالكلمات الجامعة المعبرة ، فكلمة فحشاء واقترانها بـ(ال) الجنسية ، وكذلك كلمة منكر واقترانها بـ(أل) الجنسية ، يدل على العموم والشمول ، فالإتيان بالصلاة على النحو الذي يريده الله –تعالى – منا هو كفيل بانتزاع كل الفواحش والمنكرات ، بل وتصرف عن مجرد التفكير فيها ، ولم يستثني من ذلك أية فاحشة وأي منكر ، وهذا من شأنه يجعل المؤمن يقف على قيمة الصلاة وكثير منافعها .قال صاحب التحرير والتنوير.

واعلم أن التعريف في قوله {الفحشاء والمنكر} تعريف الجنس فكلما تذكر المصلي عند صلاته عظمة ربه ووجوب طاعته وذكر ما قد يفعله من الفحشاء والمنكر كانت صلاته حينئذ قد نهته عن بعض أفراد الفحشاء والمنكر [٢]

و{الفحشاء}: اسم للفاحشة، والفُحش: تجاوز الحد المقبول. فالمراد من الفاحشة: الفعلة المتجاوزة ما يُقبل بين الناس. ..... والمقصود هنا من الفاحشة: تجاوز الحد المأذون فيه شرعاً من القول والفعل، وبالمنكر: ما ينكره الشرع ولا يرضى بوقوعه.[٣]

وكأنّ الجمع بين الفاحشة والمنكر منظور فيه إلى اختلاف جهة ذمه والنهي عنه.[٤]

وجملة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر تعليل لما قبلها [٥]

(ولذكر الله اكبر) وللصلاة اكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها به للتعليل بأن اشتمالها على ذكره هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات ، أو لذكر الله إياكم برحمته اكبر من ذكركم إياه بطاعته (والله يعلم ما تصنعون) منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم به أحسن المجازاة [٦]

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٠ ص ٢٥٩.
(٢) التحرير والتنوير ج ٢٠ ص ٢٦٠
(٣) التحرير والتنوير ج ٢٠ ص ٢٦٠.
(٤) التحرير والتنوير ج ٢٠ ص ٢٦٠.
(٥) فتح القدير ج ٤ ص ٢٠٤
(٦) تفسير البيضاوي ج ٤ ص ٣١٨

يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين الأول على ترك الفواحش والمنكرات أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعا من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا إن الصلاة تنهى عن الفحشاء[١] و الفحشاء ما قبح من الأعمال والمنكر مالا يعرف في الشرع [٢]

ومعنى نهيها عنهما أنها سبب للانتهاء عنهما لأنها مناجاة لله تعالى فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته وإعراض كلى عن معاصيه ، قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله تعالى ، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً [٣]

وقال صاحب زاد المسير« وفي معنى هذه الآية للعلماء ثلاثة أقوال أحدها أن الإنسان إذا أدى الصلاة كما ينبغي وتدبر ما يتلو فيها نهته عن الفحشاء والمنكر هذا مقتضاها وموجبها ، والثاني أنها تنهاه ما دام فيها والثالث أن المعنى ينبغي أن تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر» [٤]

وبعد ما بين تعالى أهمية الصلاة وأهم ما تعود به على المصلي من منافع انتقل إلى أمر هو أكبر وأشمل في الفائدة وهو ذكر الله ، لأنه لا يحد بزمن ولا بمكان ، فنهي الذكر عن الفحشاء والمنكر ، هو أكبر من نهي الصلاة ، وتفسير الذكر على عمومه كما جاءت به الآية هو أتم وأكمل وأشمل من اختصاصه بما يقع في الصلاة .

قوله تعالى ولذكر الله اكبر فيه أربعة أقوال أحدها ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه رواه ابن عمر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبه قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد في آخرين، والثاني ولذكر الله أفضل من كل شيء سواه وهذا مذهب أبي الدرداء وسلمان وقتادة ، والثالث ولذكر الله في الصلاة أكبر مما نهاك عنه من الفحشاء والمنكر قاله عبد الله بن عون ، والرابع ولذكر الله العبد ماكان في صلاته أكبر من ذكر العبد لله قاله ابن قتيبة [٥]

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤١٥
(٢) تفيير البغوي ج ٣ ص ٤٦٨
(٣) تفسير أبي السعود ج ٧ ص ٤٢
(٤) زاد المسير ج ٦ ص٢٧٥
(٥) زاد المسير ج ٦ ص ٢٧٥

قال أبو بكر يعني القيام بموجبات الصلاة من الإقبال عليها بالقلب والجوارح .... و لا يتخللها غيرها من أمور الدنيا وليس شيء من الفروض بهذه المنزلة ، فهي تنهى عن المنكر وتدعو إلى المعروف بمعنى أن ذلك مقتضاها وموجبها لمن قام بحقها [١]

وأرجح ما ذهبت إليه آنفاً وذلك لأن العطف يقتضي المغايرة ، ولأن العبد في حاجة تربطه وتذكره بالله وتزجره عن معاصيه ،قال تعالى (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران:١٩١) وأيضاً السياق يحكم بهذا فالمقام مقام تسلية ، فتلاوة القرآن من أعظم أنواع التسلية والتثبيت وكذلك الصلاة ثم اختتم الآية بعمل فيه مداومة على التسلية وهو ذكر الله –تعالى – (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد:٢٨)

وثمت إشكال وهو أن بعض المصلين لا ينتهون عن الفحشاء والمنكر ، وحل الإشكال أن هذه الطائفة لا تقيم الصلاة كما يربد الله لها أن تقام ، وإلا (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً) (النساء:١٢٢)

وقال الألوسي : ينحل الإشكال المشهور وهو أنا نرى كثيرا من المرتكبين للفحشاء والمنكر يصلون ولا ينتهون عن ذلك فإن نهيها إياهم عن الفحشاء والمنكر بهذا المعنى لا يستلزم انتهاءهم ، ألا ترى أن الله تعالى ينهى عن ذلك أيضا كما قال سبحانه (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) والناس لا ينتهون وليس نهي الصلاة بأعظم من نهيه سبحانه وتعالى فإذا لم يكن هناك استلزام فكيف يكون هنا وما أرى هذا الإشكال إلا مبنيا على توهم استلزام النهي للانتهاء وهو توهم باطل وتخيل لا يشهد له عقل ولا يؤيده نقل . [٢] ولا تعارض بين ما ذكرته من حل هذا الإشكال وبين ما ذهب إلي الألوسي .

وذيلت الآية الكريمة بهذا التذييل الموجز المعجز (والله يعلم ما تصنعون) ومعناه أن الله – سبحانه عليم بتلاوة الكتاب وما يترتب على ذلك من التدبر والعمل ، وعليم بإقامة الصلاة ، وما يترتب على ذلك من نهيها عن الفحشاء والمنكر. وقال صاحب التحرير والتنوير « وقوله {والله يعلم ما تصنعون} تذييل لما قبله، وهو وعد ووعيد باعتبار ما

---

(١) أحكام القرآن ٢ ج ٥ ص٢١٧
(٢) روح المعاني ج٢٠ ص ١٦٣

اشتمل عليه قوله {اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة} وقوله {تنهى عن الفحشاء والمنكر}.والصنع: العمل. » [١]

وقوله تعالى (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) (لقمان:١٧)

قبل هذه الآية الكريمة ترى النداء صدر من لقمان لابنه مرتين ، أولهما في مقام النهي عن الشرك (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان:١٣) ، والثاني في مقام تعريفه بعظمة قدرة الله -تعالى – في خلقه -(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) (لقمان:١٦)

قال صاحب البحر في مناسبة هذه الآية لما قبلها « ولما نهاه أولاً عن الشرك، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته، أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات، فبدأ بأشرفها، وهو الصلاة، ، حيث يتوجه إليه بها، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن جميعها، أو على ما يصيبه بسبب الأمر بالمعروف ممن يحثه عليه، والنهي عن المنكر ممن ينكره عليه، » [٢]

وإنك لتجد معي هذا التنسيق العجيب والترتيب البديع بين هذه النداآت الثلاثة ، فمن اعترف بالوحدانية لله –تعالى – فسيقر له بالقدرة ، والإقرار بهما يترتب عليه اتباع الأمر واجتناب النهي ، كما أن تكرير النداء في المقامات الثلاثة يفيد زيادة التنبيه والاهتمام بما يتضمنه النداء في كل مقام.

وفي التحرير والتنوير « تكرير النداء لتجديد نشاط السامع لوعي الكلام. »[٣]

قال صاحب التحرير والتنوير « وافتتاح الموعظة بنداء المخاطب الموعوظ مع أن توجيه الخطاب مغن عن ندائه لحضوره بالخطاب، فالنداء مستعمل مجازاً في طلب حضور الذهن لوعي الكلام وذلك من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام » [٤]

والنداء بوصف البنوة المشعر بالحنان والرأفة والرحمة لتتهيأ النفس لما يأتي بعده من أوامر ونواهي ، فتبادر وتسرع لاتباع الأمر واجتناب النهي ، وفي إضافة الابن إلى نفسه

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٠ ص ٢٦١.
(٢) البحر المحيط ج ٨ ص ٤١٥
(٣) التحرير والتنوير ج ٢١ ص ١٦٢.
(٤) التحرير والتنوير ج ٢١ ص ١٥٤.

مزيد لإظهار المحبة وإظهار شدة الحرص على ما ينفعه ، وكذلك للتوضيح والبيان ، حتى لا يظن أنه ابن لغيره .

واختلف أهل التفسير في معنى الإقامة فمنهم من قال « يا بني أقم الصلاة) تكميلا لنفسك » [١] أو «أقم الصلاة أي بحدودها وفروضها وأوقاتها » [٢] وأضيف إلى ذلك بإتقان طهارتها،وقراءتها ، والحرص على الخشوع فيها ، وأرى أن كل ذلك تشمله الإقامة وتشمل غيره مما لم نفطن أليه .

(وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) تكميلا لغيرك [٣] – وقال ابن كثير- «(وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) أي بحسب طاقتك وجهدك » [٤] أو استجابة لأمر الله ، أو من باب الأخذ بالأسباب ، وإلا فالآمر أو الناهي لا شأن له في الائتمار أو الانتهاء ، كما قال الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – فيما هو أخطر من ذلك(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (القصص:٥٦)

ولكن لماذا قدم هنا الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر ؟ أقول : إن الأمر بالمعروف فيه كلفة ومشقة فهو يأخذ قدراً من الوقت وقدراً من المال وقدراً من الجهد وغير ذلك ، كما أن صدور المنكر عن أهل الإيمان قليل لذلك أخره ، وأيضاً لحرص أهل الإيمان على الأجر والثواب ، والإئتمار بالمعروف من أعظم ثمار الصلاة وهو ألصق بها لذلك ذكر بعدها .

وهكذا نجد القرآن الكريم عند الحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو بالطبع صادر من المؤمنين إلى المؤمنين يقدم الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر قال تعالى (وَلْتَكُن مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران:١٠٤) (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (آل عمران:١١٠) (يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) (آل عمران:١١٤) (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ

---

(١) تفسير البيضاوي ج ٤ ص ٣٤٨
(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص٤٤٧
(٣) تفسير البيضاوي ج ٤ ص ٣٤٨
(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٤٧

عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (لأعراف:١٥٧) (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (التوبة:١١٢) (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ) (الحج:٤١) (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة:٧١) (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل:٩٠)

أما عند الحديث عن المعروف والمنكر الصادر عن غير المؤمنين فالقرآن يقدم الأمر بالمنكر على النهي عن المعروف قال تعالى (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (التوبة:٦٧)

وفي بعض المقامات يفرد عدم التناهي عن المنكر قال تعالى (كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (المائدة:٧٩) والسبب في ذلك أن غير المؤمنين كيف يؤمرون بالمعروف قبل التخلي عن أكبر منكر وهو الشرك أو النفاق وهل يستقيم معروف مع الإصرار على واحد منهما .

وإن كنت قد راعيت حديث القرآن الكريم عن هذا الأمر في معظم آياته وما يتطلبه السياق الكلي للقرآن ، فإن الرازي راعى في تعليله السياق هنا فقط ، فنظر إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الصادرين من لقمان لابنه فقال « فإن قال قائل كيف قدم في وصيته لابنه الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر، وقبل قدم النهي عن المنكر على الأمر بالمعروف فإنه أول ما قال {يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ } ثم قال: {لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً أَقِمِ الصَّلَوةَ } فنقول هو كان يعلم من ابنه أنه معترف بوجود الله فما أمره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذي يترتب على هذا المعروف، فإن المشرك بالله لا يكون نافياً لله في الاعتقاد وإن كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف في مقابلته منكر والمعروف في معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه، فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه

عن المنكر لأنه ورد في التفسير أن ابنه كان مشركاً فوعظه ولم يزل يعظه حتى أسلم، وأما ههنا فأمر أمراً مطلقاً والمعروف مقدم على المنكر »[١]

وانظر معي إلى الإيجاز المعجز الذي اشتملت عليه الآية الكريمة ، فالمعروف يشمل كل الطاعات والخيرات مما يتعلق بالدنيا والآخر ، والمنكر يشمل كل المعاصي والشرور المتعلقان بالدنيا والآخرة ، قال صاحب التحرير والتنوير« وشمل الأمرُ بالمعروف الإتيانَ بالأعمال الصالحة كلها على وجه الإجمال ليتطلَّب بيانه في تضاعيف وصايا أبيه كما شمل النهيُ عن المنكر اجتناب الأعمال السيئة كذلك.» [٢]

ولا ريب أن أمر لقمان لابنه أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر يلزم منه أن هذا الابن يأتمر هو بالمعروف قبل أن يأمر غيره به وأن ينتهي هو عن المنكر قبل أن ينهي غيره عنه ، وفي هذا ضرب من الإيجاز ، قال صاحب التحرير والتنوير :

. والأمر بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقتضي دإتيان الآمر وانتهاءه في نفسه لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشر، ومصالح ومفاسد، فلا جرم أن يتوقاها في نفسه بالأولوية من أمره الناسَ ونهيه إياهم. فهذه كلمة جامعة من الحكمة والتقوى، إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخيرَ وبثّه في الناس وكفه عن الشر وزجره الناس عن ارتكابه،[٣]

ثم أمره بالصبر على ما أصابه من أذى بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، لأنه « علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن ينالـه من الناس أذى فأمره بالصبر» [٤] ولكن التعبير بالفعل الماضي في قوله (أصابك) يدل على أن هذا الابن كان يمارس ذلك قبل أن يأمره أبوه به، وإنما أمره بذلك حتى يستمر ويداوم ، وألا ينصرف أو يتقاعس بسبب ما يصيبه .

والصبر: هو تحمل ما يحل بالمرء مما يؤلم أو يحزن. [٥] ولما كانت فائدة الصبر عائدة على الصابر بالأجر العظيم عُدَّ الصبر هنا في عداد الأعمال القاصرة على صاحبها ولم يلتفت إلى ما في تحمل أذى الناس من حسن المعاملة معهم حتى يذكر الصبر مع قوله

---

(١) تفسير الرازي ج ٢٥ ص ١٣٣
(٢) التحرير والتنوير ج ٢٠ص ١٦٤.
(٣) التحرير والتنوير ج٢١ ص ١٦٥.
(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٤٧
(٥) التحرير والتنوير ج ٢١ ص١٦٦.

{ولا تصعر خَدّك للناس}(لقمان: ١٨) لأن ذلك ليس هو المقصود الأول من الأمر بالصبر. [١]

وذيلت الآية بهذا التذييل المشجع والمعرف بفائدة ما ذكر من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر في سبيل ذلك ، قال صاحب التحرير والتنوير « والإشارة بـــ {ذلك}إلى المذكور من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما أصاب. والتأكيد للاهتمام.» [٢]

وأشار أبو السعود إلى ما في معنى البعد بقوله « وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لما مر مرارا من الإشعار ببعد منزلته في الفضل » [٣]

والعزم مصدر بمعنى: الجزم والإلزام. والعزيمة: الإرادة التي لا تردد فيها. [٤] وقال صاحب البحر: والعزم مصدر، فاحتمل أن يراد به المفعول، أي من معزوم الأمور، واحتمل أن يراد به الفاعل ، أي عازم الأمور، كقوله: {فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ }. [٥]

. والظاهر أنه يريد من لازمات الأمور الواجبة، لأن الإشارة بذلك إلى جميع ما أمر به ونهى عنه. وهذه الطاعات يدل إيصاء لقمان على أنها كانت مأموراً بها في سائر الملل. [٦] [٦]

وأقمن الصلاة

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) (الأحزاب:٣٣)

وقبل هذه الآية الكريمة جاء قوله تعالى (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً) (الأحزاب:٣٢)

بدأت الآية الكريمة بهذا النداء المحبب إلى نفوسهن لأنه من قبل رب العالمين ، ومشعر بالقرب والمؤانسة ، فلم يكلف رسوله – صلى الله عليه وسلم - بالتبليغ كما في آيات أخرى ، وأضافهن إلى النبي - صلى الله عليه وسلم – زيادة في التشريف والتكريم ، وحث لهن

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢١ ص ١٦٥.
(٢) التحرير والتنوير ج ٢١ص ١٦٦.
(٣) تفسير أبي السعود ج ٧ ص ٧٣
(٤) التحرير والتنوير ج ٢١ص ١٦٦.
(٥) البحر المحيط ج ٨ ص ٤١٥ .
(٦) البحر المحيط ج ٨ ص ٤١٥ – ٤١٦ .

على الالتزام والانصياع لما سيأتي بعده من أحكام وتشريعات ، ولأنهن مناط الأسوة والقدوة ، والناس ينظرون إليهن ، وقوله (لستن كأحد من النساء) يؤكد هذه المعاني ويعضدها .

وقال صاحب البحر « ثم نادى نساء النبي، ليجعلن بالهن مما يخاطبن به، إذا كان أمراً يجعل له البال. » [١]

وبدأت الآية بعد النداء بأهم شيء وهو التقوى لأنه إذا وجدت حملت على العمل والاتباع ، ثم جاء النهي عن الخضوع بالقول ، لأنه يثير الفتنة ويدني من طمع المرضى وعباد الشهوة ، وفيه تشجيع للشيطان على إكمال مهمته . ولا يلزم من النهي تلبسهن بالمنهي عنه ، بل طلب الاستمرار على الانتهاء .

أمرهن - رضي الله تعالى عنهن - بملازمة البيوت وهو أمر مطلوب من سائر النساء - أخرج الترمذي والبزار عن ابن مسعود عن النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - قال إن المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها أستشرفها الشيطان وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها [٢]

وقال صاحب التحرير والتنوير « هذا أمر خُصِّصْنَ به وهو وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيراً لهن ، وتقوية في حرمتهن، فقرارهن في بيوتهن عبادة ، وأن نزول الوحي فيها وتردد النبي - صلى الله عليه وسلم - في خلالها يكسبها حرمة. وقد كان المسلمون لما ضاق عليهم المسجد النبوي يصلُّون الجمعة في بيوت أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - كما في حديث «الموطأ». وهذا الحكم واجب على أمهات المؤمنين وهو كمال لسائر النساء. »[٣]

وإضافة البيوت إليهن لأنهن ساكنات بها أسكَنهُنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت بيوت النبي - صلى الله عليه وسلم- يميَّز بعضها عن بعض بالإضافة إلى ساكنة البيت، يقولون: حُجرة عائشة، وبيت حفصة، فهذه الإضافة كالإضافة إلى ضمير المطلقات في قوله تعالى: {لا تخرجوهن من بيوتهن}(الطلاق: ١). [٤]

وجعل الراغب إطلاق البرج على سعة العين وحسنها للتشبيه بالبرج في الأمرين ولا يخفى أنه لو فسر التبرج هنا بالظهور من البرج تكون هذه الجملة كالتأكيد لما قبلها فالأولى

---

(١) البحر المحيط ج ٨ ص ٤٧٣ .
(٢) روح المعاني ج ٢٢ ص ٦
(٣) التحرير والتنوير ج ٢٢ص ١٠.
(٤) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ١١.

أن لا يفسر به وتبرج مصدر تشبيهي مثل له صوت صوت حمار، أي لا تبرجن مثل تبرج الجاهلية الأولى، وقيل في الكلام إضمار مضافين أي تبرج نساء أيام الجاهلية وإضافة نساء على معنى في[١]

والجاهلية الأخرى الفسوق في الإسلام ويؤيد قوله لأبى الدرداء إن فيك جاهلية قال جاهلية كفر أو جاهلية إسلام قال بل جاهلية كفر [٢]

أقمن الصلاة وآتين الزكاة أمرن بهما لإنافتهما على غيرهما وكونهما أساس العبادات البدنية والمالية [٣]

أريد بهذه الأوامر الدوام عليها لأنهن متلبسات بمضمونها من قبل، وليعلم الناس أن المقربين والصالحين لا ترتفع درجاتهم عند الله تعالى عن حق توجه التكليف عليهم. [٤]

ثم بين أن نهيهن وأمرهن ووعظهن إنما هو لإذهاب المأثم عنهن وتصونهن بالتقوى. واستعار الرجس للذنوب، والطهر للتقوى ، لأن عرض المقترف للمعاصي يتدنس بها ويتلوث، كما يتلوث بدنه بالأرجاس. وأما الطاعات، فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر، وفي هذه الاستعارة تنفير عما نهى الله عنه، وترغيب فيما أمر به. والرجس يقع على الإثم، وعلى العذاب، وعلى النجاسة، وعلى النقائص، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت. وقال الحسن: الرجس هنا: الشرك. وقال السدي: الإثم. وقال ابن زيد: الشيطان. وقال الزجاج: الفسق؛ وقيل: المعاصي كلها، ذكره الماوردي. وقيل: الشك؛ وقيل: البخل والطبع؛ وقيل: الأهواء والبدع. [٥]

(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) الذنب المدنس لعرضكم وهو تعليل لأمرهن ونهيهن على الاستئناف ولذلك عمم الحكم أهل البيت نصب على النداء أو المدح ويطهركم عن المعاصي تطهيرا ، واستعارة الرجس للمعصية ، والترشيح بالتطهير للتنفير عنها [٦]

وهذا متصل بما قبله إذ هو تعليل لما تضمنته الآيات السابقة من أمر ونهي ابتداء من قوله تعالى: {يا نساء النبي من يأت منكن}(الأحزاب: ٣٠) الآية. فإن موقع {إنما} يفيد

---

(١) روح المعاني ج٢٢ ص ٨
(٢) تفسير أبي السعود ج ٧ ص ٢٠٣
(٣) روح المعاني ج ٢٢ ص ١٢
(٤) التحرير والتنوير ج ٢٢ص ١٣.
(٥) البحر المحيط ج ٨ ص ٤٧٨ .
(٦) تفسير البيضاوي ج ٤ ص ٣٧٤

ربط ما بعدها بما قبلها لأن حرف (إنَّ) جزء من {إنما} وحرف (إن) من شأنه أن يغني غناء فاء التسبب كما بينه الشيخ عبد القاهر، فالمعنى أمَركن الله بما أمر ونَهاكُنّ عما نهى لأنه أراد لكُنّ تخلية عن النقائص والتحْلية بالكمالات. وهذا التعليل وقع معترضاً بين الأوامر والنواهي المتعاطفة. (١)

والتعريف في {البيت} تعريف العهد وهو بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وبيوت النبي -عليه الصلاة والسلام- كثيرة فالمراد بالبيت هنا بيت كل واحدة من أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - وكل بيت من تلك البيوت أهله النبي - صلى الله عليه وسلم - وزوجه صاحبة ذلك، ولذلك جاء بعده قوله: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن}(الأحزاب: ٣٤)، وضميرَا الخطاب موجهان إلى نساء النبي - صلى الله عليه وسلم -على سَنن الضمائر التي تقدمت. وإنما جيء بالضميرين بصيغة جمع المذكر على طريقة التغليب لاعتبار النبي - صلى الله عليه وسلم - في هذا الخطاب لأنه رب كل بيت من بيوتهن وهو حاضر هذا الخطاب إذ هو مبلغه. ، وفي هذا التغليب إيماء إلى أن هذا التطهير لهنّ لأجل مقام النبي - صلى الله عليه وسلم- لتكون قريناته مشابهات له في الذكاء والكمال، كما قال الله تعالى: {والطيبات للطيبين}(النور: ٢٦) يعني أزواج النبي للنبي - صلى الله عليه وسلم - وهو نظير قوله في قصة إبراهيم: {رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت}(هود: ٧٣) والمخاطب زوج إبراهيم وهو معها. (٢)

و{أهل البيت}: أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم- ، والخطاب موجه إليهن ، وكذلك ما قبله وما بعده لا يخالط أحداً شك في ذلك، ولم يفهم منها أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم والتابعون إلا أن أزواج النبي عليه الصلاة والسلام- هن
المراد بذلك وأن النزول في شأنهنّ. (٣)

واللام في قوله: {ليذهب} لام جرّ تزاد للتأكيد غالباً بعد مادتي الإرادة والأمر، وينتصب الفعل المضارع بعدها بـــ (أنْ) مضمرة إضماراً واجباً، ومنه قوله تعالى: {وأمرنا لنسلم لرب العالمين}(الأنعام: ٧١)، وقول كثير: (٤)

وفي التعبير بالفعل المضارع دلالة على تجدد الإرادة واستمرارها، وإذا أراد الله أمراً قدّره إذ لا رادّ لإرادته. (١)

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٢ ص١٤.
(٢) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ١٤.
(٣) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ١٥.
(٤) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ١٧.

والمعنى: ما يريد الله لكُنّ مما أمركن ونهاكن إلا عصمتَكُنّ من النقائص وتحليتكن بالكمالات ودوامَ ذلك، أي لا يريد من ذلك مقتاً لكنّ ولا نكاية. فالقصر قصر قلب كما قال تعالى: ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم}(المائدة: ٦). وهذا وجه مجيء صيغة القصر بـــ{إنما}. والآية تقتضي أن الله عصم أزواج نبيه - صلى الله عليه - وسلم- من ارتكاب الكبائر وزكى نفوسهن. (٢)

ولما كان أهل البيت يشملهن وآباءهن، غلب المذكر على المؤنث في الخطاب في: {عَنْكُمْ }، {وَيُطَهّرَكُمْ }.(٣)

قيل يراد به نساء النبي - صلى الله عليه وسلم- وقيل يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته ، و أهل البيت نصب على المدح قال وإن شئت على البدل قال ويجوز الرفع والخفض قال النحاس إن خفض على أنه بدل من الكاف والميم لم يجز عند أبي العباس محمد بن يزيد قال لايبدل من المخاطبة ولا من المخاطب لأنهما لا يحتاجان إلى تبيين (٤)

ويطهركم تطهيرا مصدر فيه معنى التوكيد (٥)

والمقيمين الصلاة

قوله تعالى (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً) (النساء:١٦٢)

وجاءت هذه الآية الكريمة لتبرز كمال الإنصاف فأهل الكتاب منهم قلة متمسكة بالحق ومذعنة له ، ورغم قلتهم ما أهملهم القرآن ، ولم يصدر أحكامه الحاسمة على الكل بل استدرك واستثنى منهم طائفة مؤمنة وعالمة بل وراسخة في العلم ، ورسوخهم في العلم هو الذي حملهم على التمسك بالحق والإذعان لما جاء في كتبهم من التبشير ببعثة النبي محمد –صلى الله عليه وسلم – والتصديق به ، ونصرته عند بعثته

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص١٥.
(٢) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ١٥.
(٣) البحر المحيط ج ٨ ص ٤٧٩ .
(٤) تفسير البيضاوي ج ٤ ص ٣٧٤
(٥) تفسير البيضاوي ج٤ ص ٣٧٤

والاستدراك بقوله: {لكن الراسخون في العلم} الخ ناشئ على ما يوهمه الكلام السابق ابتداء من قوله: {يسألك أهل الكتاب}(النساء: ١٥٣) من توغّلهم في الضلالة حتّى لا يرجى لأحد منهم خير وصلاح، فاستدرك بأنّ الراسخين في العلم منهم ليسوا كما توهَّم، فهم يؤمنون بالقرآن مثل عبد الله بن سلام ومخيريق [١]. وقال صاحب البحر « مجيء لكنْ هنا في غاية الحسن، لأنها داخلة بين نقيضين وجزائهما، وهم: الكافرون والعذاب الأليم، والمؤمنون والأجر العظيم، » [٢]

ولم يقل القرآن والعلماء منهم ، وإنما وصفهم بالرسوخ في العلم لأنه هو الحامل لهم على التمسك بما جاء بعده من أوصاف، وأيضاً فيه تعريض بمن سبق ذكرهم ، وهذا مفهوم من قوله (منهم) .

والراسخ حقيقته الثابت القدم في المشي، لا يتزلزل؛ واستعير للتمكّن من الوصف مثل العلم بحيث لا تغرّه الشبه [٣]

ولكن لماذا عطف قوله : (والمؤمنون) على قوله (الراسخون) ووصف الإيمان ينطبق على الراسخين ، أقول لأن كل راسخ مؤمن وليس العكس ، فكثير من أهل الإيمان ملتزمون بفطرتهم ، أو بمقدار يسير من العلم لا يصل إلى حد الرسوخ ، كما أنه لا يشترط لقبول إيمانهم رسوخهم في العلم ، ولو جعل الرسوخ في العلم شرطاً للإيمان لخرج كثير من المؤمنين عن دائرة الإيمان والله أعلم.

والرسوخ في العلم وصف ذكره القرآن في مقامين المقام الأول : في سورة آل عمران حيث تبين الآية موقف الراسخين في العلم من المحكم والمتشابه من آيات الذكر الحكيم ، في مقابل موقف من في قلوبهم زيغ (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران:٧) والمقام الثاني ما نحن بصدده هنا من الحديث عن الراسخين في العلم من أهل الكتاب ، وما ذكر من كريم أوصافهم .

وقوله (يؤمنون) فيه بيان بعد إبهام ، وتفصيل بعد إجمال ، وعبر بالفعل الضارع بعد التعبير بالاسم لما فيه من مصاحبة الاستمرار والتجدد مع الثبوت ، وهذا أبلغ في امتداحهم

---

(١) التحرير والتنوير ج ٦ ص ٢٨ .
(٢) البحر المحيط ج ٤ ص ١٣٤ .
(٣) التحرير والتنوير ج ٦ ص ٢٨ .

، ولأن العوارض والخواطر تحتاج إلى تجديد الإيمان وحراسته والمحافظة عليه من النقصان ، بل والحرص على زيادته .

وبني الفعل (أنزل) للمجهول في الموضعين لأن الفاعل فيهما معلوم ، ولأن المراد هو المتعلق وهو الإيمان بما أنزل على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم - وبما أنزل على الأنبياء السابقين وقد تحقق ذلك في المؤمنين والراسخين .

ثم عاد إلى التعبير بالاسم مرة ثانية فقال (والقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) ليدل على ثبوتهم واستمرارهم على إقامة الصلاة والإنفاق .

ولماذا انتصب قوله (والمقيمين الصلاة) دون سابقه ولاحقه ، لقد وردت آثار بخصوص هذا الأمر لكنها مشكلة جداً ومنها أن ذلك لحن من الكتاب ، ومنها ما نسب إلى عائشة رضي الله عنها من تخطئة رسم المصحف ، والحمد لله لقد تكفل العلماء بالرد على ذلك ، وبرأوا ساحة الصحابة رضوان الله عليهم مما نسب إليهم .

قال صاحب مناهل العرفان « ... يقولون روي عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ والمقيمين الصلاة ويقول هو من لحن الكتاب والجواب ... أن ابن جبير لا يريد بكلمة لحن الخطأ إنما يريد بها اللغة والوجه في القراءة على حد قوله تعالى ولتعرفنهم في لحن القول ٤٧ محمد ٣٠ **والدليل على هذا التوجيه أن سعيد بن جبير نفسه كان يقرأ والمقيمين** الصلوة ٤ النساء ١٦٢ فلو كان يريد باللحن الخطأ ما رضي لنفسه هذه القراءة وكيف يرضى ما يعتقد أنه خطأ وهذه الكلمة في آية من سورة النساء ونصها لكن الرسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلوة والمؤتون الزكوة والمؤمنون بالله واليوم الأخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ٤ النساء ١٦٢ فكلمة والمقيمين الصلاة قرأها الجمهور بالياء منصوبا كما ترى وقرأها جماعة بالواو منهم أبو عمرو في رواية يونس وهارون عنه ولكل من القراءتين وجه صحيح فصيح في اللغة العربية فالنصب مخرج على المدح والتقدير وأمدح المقيمين الصلاة والرفع مخرج على العطف والمعطوف عليه مرفوع كما ترى » [١]

وأجاب على ما نسب إلى عائشة – رضي الله عنها - بما نقله عن صاحب البحر فقال : « ما نسب إلى عائشة رضي الله عنها من تخطئة رسم المصحف في قوله تعالى والمقيمين الصلاة بالياء مردود بما ذكره أبو حيان في البحر إذ يقول ما نصه وذكر عن

---

(١) مناهل العرفان ج ١ ص ٢٦٨

عائشة رضي الله عنها وعن أبان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ كاتب المصحف ولا يصح ذلك عنهما لأنها عربيان فصيحان وقطع النعوت مشهور في لسان العرب وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيبويه وغيره وقال الزمخشري لا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه خطأ في خط المصحف وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب يريد كتاب سيبويه ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان وخفي عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلمة يسدها من بعدهم وخرقا يرفوه من يلحقهم [١]وذكر السيوطي في الإتقان ردوداً أخرى [٢]

وأرى أن نصب (المقيمين) فيه لفت للانتباه وتحريك للنفس لكي تطلع إلى معرفة السبب الذي جعل الصلاة تنفرد بهذا الإعراب مخالفة لما قبلها وما بعدها ، وهو الوقوف على أهمية الصلاة والإشارة إلى منزلتها ومكانتها .

ونقل السيوطي عن أبى البقاء عدة توجيهات للنصب فقال « وأما قوله والمقيمين الصلاة ففيه أيضا أوجه أحدها أنه مقطوع إلى المدح . بتقدير ، أمدح ، لأنه أبلغ ، الثاني أنه معطوف على المجرور في يؤمنون بما أنزل إليك أي ويؤمنون بالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء وقيل الملائكة ، وقيل التقدير : يؤمنون بدين المقيمين ، فيكون المراد بهم المسلمين ، وقيل بإجابة المقيمين ، الثالث إنه معطوف على قبل أي : ومن قبل المقيمين ، فحذفت قبل وأقيم المضاف إليه مقامه ، الرابع أنه معطوف على الكاف في قبلك ، الخامس أنه معطوف على الكاف في إليك ، السادس أنه معطوف على الضمير في منهم حكى هذه الأوجه أبو البقاء .» [٣]

وقال صاحب البحر مشيراً إلى أهمية القطع في الآية « وهذا القطع لبيان فضل الصلاة والزكاة، فكثر الوصف بأن جعل في جمل. » [٤]

وقوله (والمؤمنون بالله واليوم) فيه تعريضٌ بأن مَنْ عداهم من أهل الكتابِ ليسوا بمؤمنين بواحد منهما حقيقةً فإنهم مشركون بالله سبحانه بقولهم: عزيرٌ ابنُ الله، وبقولهم: لن تمسنا النارُ إلا أياماً معدودةً كافرون باليوم الآخِرِ

---

(١) مناهل العرفان ج ١ ص ٢٧٢
(٢) انظر الإتقان ج ١ ص ٥٣٧
(٣) الإتقان ج ١ ص ٥٤٠
(٤) البحر المحيط ج ٤ ص ١٣٤ .

فإن قيل كيف ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر وهما داخلان في الإيمان بما أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان بما أنزل على إخوانه من الأنبياء السابقين أقول : لأن في إيمان بعضهم بالله خلل من حيث قولهم عزير بن الله) وخلل في الإيمان باليوم الآخر لما يعتريهم من الريبة والشك والسير في ركاب المنكرين للبعث والحشر والنشر ، أو ذلك من باب مواصلة ومداومة التذكير والتهييج والحث على الالتزام .

وقد فطن صاحب البحر إلى الحكمة من ترتيب هذه الأوصاف وهي الترقي في المدح فقال : ولما ذكر أولاً والمؤمنون تضمن الإيمان بما يجب أن يؤمن به، ثم أخبر عنهم وعن الراسخين أنهم يؤمنون بالقرآن وبالكتب المنزلة، ثم وصفهم بصفات المدح من امتثال أشرف أوصاف الإيمان الفعلية البدنية وهي: الصلاة، والمالية وهي الزكاة، ثم ارتقى في المدح إلى أشرف الأوصاف القلبية الاعتقادية وهي الإيمان **بالموحد** الذي أنزل الكتب وشرع فيها الصلاة والزكاة، وباليوم الآخر وهو البعث والمعاد الذي يظهر فيه ثمرة الإيمان ، وامتثال تكاليف الشرع من الصلاة والزكاة ، وغيرهما. ، ثم إنه لما استوفى ذلك أخبر تعالى أنه سيؤتيهم أجراً عظيماً وهو ما رتب تعالى على هذه الأوصاف الجليلة التي وصفهم بها،[١]

، وقولُه تعالى: {أُوْلَـئِكَ } إشارةٌ إليهم باعتبار اتصافِهم بما عُدِّد من الصفات الجميلةِ، وما فيه من معنى البُعدِ للإشعار بعلو درجتِهم وبُعدِ منزلتِهم في الفضل، [وقال صاحب البحر : وأشار إليهم بأولئك، ليدل على مجموع تلك الأوصاف . [٢]

وزاد في تكريمهم بإسناد إتيان الجزاء إلى نفسه – تعالى - ، وأتى بضمير المتكلم جمعاً من أجل ذلك الغرض ، فلم يقل سيؤتيهم ، وإنما قال (سنؤتيهم) ، وفي ذلك تعظيم لنفسه تعالى ، وتعظيم للأجر لأن الأجر عندما يكون من عظيم يكون عظيماً ، ثم أكد الإتيان بدخول السين على الفعل المضارع وليدل على قرب الإتيان ، وإذا كان الأجر معنوياً فقد أبرزه في صورة المحس ، أو أنه محسوس بالفعل ، وهو ما في الجنة من النعيم المقيم ، والأفضل أن يراد به النوعان ، وايضاً مما يدل على تعظيم الأجر بجانب إتيانه من الله ، تنكيره ، ووصفه بالعظيم .

. وقرأ حمزة: سيؤتيهم بالياء عوداً على قوله: والمؤمنون بالله. وقرأ باقي السبعة. على الالتفات ومناسبة وأعتدنا.[١]

---

(١) البحر المحيط ج ٤ ص ١٣٦ .
(٢) البحر المحيط ج ٤ ص ١٣٦ .

والمقيمي الصلاة

قولـه تعـالى (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّـهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (الحج:٣٥)

وردت هذه الآيـة الكريمـة بعد قولـه تعـالى (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) (الحـج:٣٤) وهـو « اعتراض بين سوق المنن، والخطاب للنبي- صلى الله عليه وسلم - وأصحاب هذه الصفات هم المسلمون.

والمُخْبِت: المتواضع الذي لا تكبُّر عنده. وأصل المخبت مَن سلك الخَبْت وهو المكان المنخفض ضد المُصعد، ثم استعير للمتواضع كأنه سلك نفسه في الانخفاض ، والمراد بهم هنا المؤمنون ، لأنّ التواضع من شيمهم كما كان التكبّر من سمات المشركين قال تعالى: {كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار}(غافر: ٣٥). »[٢]

هذه الآية وردت وسط آيات تتحدث عن مناسك الحج وذلك لما لها من صلة وثيقة بما يحدث للحاج عند أداء المناسك ، فبدأت بوصف المخبتين بعدة أوصاف ، أولها : تأثرهم بسماع الذكر ، حيث توجل قلوبهم عند سماعه ، وهذا يدل على امتداحهم بنقاء قلوبهم وصفائها وشدة تفكرهم فيما يسمعون وتدبرهم له .

وفي الموصول وصلته ما يشير إلى جواب الشرط ويدل عليه . ، والسر في بناء الفعل (ذكر) للمجهول هو أن المراد الفعل لا الفاعل ، أو لأن مصادر الذكر كثيرة ومتعددة أثناء أداء مناسك الحج . ، وجاء بلفظ الجلالة لتربية المهابة والتأثير على نفوسهم وسلوكهم . ، والوجل هنا هو وجل هيبة ومحبة ومهابة ، فمثلاً الابن يحب أباه وهو في نفس الوقت يهابه ويجله

وفسر الرازي الوجل بأنه « الخوف من عقاب الله – تعالى- والخشوع والتواضع لله ، . »[٣] وجعل صاحب التحرير والتنوير الصفات الأربع مظاهر للتواضع فقال : « وقد أتبع صفة {المخبتين}بأربع صفات وهي: وجل القلوب عند ذكر الله، والصّبر على الأذى في سبيله، وإقامة الصلاة، والإنفاق. وكلّ هذه الصفات الأربع مظاهر للتواضع»[٤]

---

(١) البحر المحيط ج ٤ ص ١٣٦ .
(٢) التحرير والتنوير ج ١٧ ص ٢٨٠ ، ٢٨١
(٣) نفير الرازي ج ٢٣ ص ٣٢٧
(٤) التحرير والتنوير ج ١٧ ص ٢٨١

وعبر عن الذكر والوجل بلفظ الماضي ليدل على أن ذكرهم لله أمر محقق ، وما يترتب عليه من وجل القلوب كذلك وفي هذا مزيد امتداح لهم وثناء عليهم .

وذكر الرازي أن الصبر وإقامة الصلاة والإنفاق هي آثار مترتبة على وجل القلوب فقال « ، ثم لذلك الوجل أثران أحدهما: الصبر على المكاره وذلك هو المراد بقوله: {وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ } وعلى ما يكون من قبل الله تعالى، لأنه الذي يجب الصبر عليه كالأمراض والمحن والمصائب. فأما ما يصيبهم من قبل الظلمة فالصبر عليه غير واجب بل إن دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة والثاني: الاشتغال بالخدمة ، وأعز الأشياء عند الإنسان نفسه وماله. أما الخدمة بالنفس فهي الصلاة، وهو المراد بقوله: {الَّذِينَ إِذَا } وأما الخدمة بالمال فهو المراد من قوله: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } [١]

ثم عدل عن الفعل إلى الاسم فقال (والصابرين على ما أصابهم) وذلك لأن رحلة الحج يكتنفها الكثير من المشاق والمتاعب مثل بعد الأوطان وتناء البلدان ومفارقة الأهل والأصحاب والأحباب ، واختلاف الناس في ألسنتهم وبلادهم وطباعهم وتقاليدهم ، والاهتمام بأداء المناسك ، وهم المأكل والمشرب والمسكن ، كل ذلك يحتاج إلى صبر جميل وثابت ، حتى لا يفسد الحج وتبطل النسك ويضيع الأجر .

والمراد بالصبر: الصبر على ما يصيبهم من الأذى في سبيل الإسلام. وأما الصبر في الحروب وعلى فقد الأحبّة فمما تشترك فيه النفوس الجلْدة من المتكبرين والمخبتين. وفي كثير من ذلك الصبر فضيلة إسلامية إذا كان تخلقاً بأدب الإسلام قال تعالى: {وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون}(البقرة: ١٥٥ـــ١٥٦) الآية. [٢]

وعبر بقوله (أصابهم) ليشمل كل شيء تسبب في ضررهم سواء أكان حسياً يتعلق بأبدانهم أو معنوياً يتعلق بالتأثير على نفوسهم فينتج عنه الإخفاق والتكاسل عن أداء النسك وسائر العبادات والطاعات .

وقدم الصبر على إقامة الصلاة لأن إقامتها وسط مناسك الحج يحتاج إلى صبر فربما ينشغل الحاج عن إقامتها بالمناسك الأخرى كالطواف والسعي وعرفة والرمي والذبح

---

(١) تفسير الرازي ج ٢٣ ص ٣٢٧
(٢) التحرير والتنوير ج ١٧ ص ٢٨١

والتحلل وغير ذلك من الأمور التي تشغل الحاج ، فكل عبادة ينبغي أن تؤدى بإتقان حتى لا تشغل عبادة عن عبادة أخرى .

وعلل صاحب روح المعاني لذكر إقامة الصلاة هنا بقوله « ولعل ذكر ذلك هنا لأن السفر مظنة التقصير في إقامة الصلاة » [١] وما ذكرته قبل ذلك من تعليل هو أولى مما ذكره الألوسي لأن السفر عام في الحج وفي غير الحج .

والتعبير بالاسم (المقيمين) يدل على أن إقامتهم للصلاة أمر ثابت ، فلم تؤثر فيه المتاعب والمشاق وأداء النسك ، فإقامتهم للصلاة وقت الحج مثل إقاتهم قبله في أوطانهم ومحل إقامتهم

والغرض من حذف النون من قوله (والمقيمي) التخفيف لكثرة دورانه في الكلام ، كما في حذف حرف النداء نحو(يوسف أعرض) ونون (لم يك) والجمع السالم ، ومنه قراءة والمقيمي الصلاة وياء والليل إذا يسر وسأل المؤرج السدوسي الأخفش عن هذه الآية فقال عادة العرب أنها إذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه ، والليل لما كان لا يسرى وإنما يسرى فيه نقص منه حرف كما قال تعالى (وما كانت أمك بغيا) الأصل بغية فلما حول عن فاعل نقص منه حرف . [٢]

ولم يذكر كيف نقص المعنى بحذف النون ، واستكمالاً لذلك أقول إن الصلاة هنا صلاة سفر وصلاة السفر هي أقل من صلاة الحضرلذلك حذفت النون . ، وصاحب التبيان جعل حذف النون للإضافة فقال « والمقيمي الصلاة الجمهور على الجر بالاضافة وقرأ الحسن بالنصب والتقدير والمقيمين فحذف النون تخفيفا للإضافة »[٣] وأنكر ابن كثير أن يكون الحذف للإضافة فقال « وإنما حذفت النون ههنا تخفيفا ولو حذفت للإضافة لوجب خفض الصلاة ولكن على سبيل التخفيف فنصبت أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه . » [٤]

ثم رجع النظم الكريم إلى التعبير بالفعل عند الحديث عن الإنفاق فقال (ومما رزقناهم ينفقون)وذلك لأن الإنفاق يختلف عن الصبر وإقامة الصلاة ، فالصبر مطلوب في كل الأوقات والأحوال ، وكذلك الصلاة ، أما الإنفاق فعلى القادر الذي عنده الاستطاعة ،

---

(١) روح المعاني ج ١٧ ص ١٥٤
(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٥٤
(٣) التبيان في إعراب القرآن ج ٢ ص ١٤٤
(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٢

فالفعل المضارع المفيد للتجدد في غاية المناسبة هنا ، لأن الإنفاق يتجدد بتجدد القدرة وزيادة المال عن الحاجة ، وبتجدد حاجة الفقير .

و(من) في قوله (ومما رزقناهم) تدل على التيسير وتدل على عدم الإسراف في الإنفاق إلى حد الحاجة والفقر ، فالمراد بعض ما رزقناهم لأنه مهما بلغ غناهم فهم في حاجة إلى بعض المال ،- فسبحان الرحيم بعباده والخبير بأحوالهم .

والمراد من الإنفاق الإنفاق على المحتاجين الضعفاء من المؤمنين لأنّ ذلك هو دأب المخبتين. وأما الإنفاق على الضيف والأصحاب فذلك مما يفعله المتكبرون من العرب كما تقدّم عند قوله تعالى: {كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين}(البقرة: ١٨٠). وهو نظير الإنفاق على الندماء في مجالس الشراب. ونظير إتمام الإيسار في مواقع الميسر:[١]

ومناسبة الإنفاق لفريضة الحج مناسبة جليلة ، فكثير ممن يقدمون على أداء هذه الفريضة هم في أمس الحاجة إلى الإنفاق عليهم لأن فقرهم مدقع وما حملهم على ذلك إلا شدة الشوق والحنين إلى أداء النسك لذلك حث القرآن الأغنياء على البذل والعطاء .

وهنا لفتة طيبة كريمة ينبغي أن تقتلع الشح من جذوره تفهم من قوله (رزقناهم) أي أنه سبحانه هو المتفضل عليهم ، حتى لا يظنوا أنهم أصحاب فضل على الفقراء .

وتقديم الجار والمجرور على المتعلق يدل على الاهتمام وأيضاً لرعاية الفاصلة.

ولكن هل يشترط اجتماع كل الصفات المتقدمة حتى يتم المقصود أجاب عن ذلك صاحب التحرير والتنوير فقال : فليس المقصود مَن جمع تلك الصفات لأن بعض المؤمنين لا يجد ما ينفق منه وإنما المقصود مَن لم يُخِل بواحدة منها عند إمكانها. [٢]

مقيم الصلاة

(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) (ابراهيم: ٤٠)

وهذا مقام ثالث ورد فيه التعبير عن إقامة الصلاة بصيغة اسم الفاعل ، وهو مقام الدعاء والتضرع الصادر من نبي الله إبراهيم – عليه السلام - ، ولا ريب أن نبياً من أنبياء الله – تعالى –لا يطلب مطلق الإقامة لأنها بهذا المعنى حاصلة لا محالة وخاصة وهو نبي ،

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٧ ص ٢٨١
(٢) التحرير والتنوير ج ١٧ ص ٢٨١

ولكن يطلب الثبوت والدوام فكلما صلى أقام وأتقن وخشع وهذا هو سر التعبير بالاسم هنا دون الفعل .

قال الألوسي : (رَبِّ اجْعَلْني مُقيمَ الصَّلٰوة} معدلاً لها، فهو مجاز من أقمت العود إذا قومته، وأراد بهذا الدعاء الديمومة على ذلك، وجوز بعضهم أن يكون المعنى مواظباً عليها، وبعض عظماء العلماء أخذ الأمرين في تفسير ذلك على أن الثاني قيد للأول مأخوذ من صيغة الاسم والعدول عن الفعل كما أن الأول مأخوذ من موضوعه على ما قيل ، فلا يلزم استعمال اللفظ في معنيين مجازيين، [١] وقال الطبري « دعاء يقول رب اجعلني مؤديا ما ألزمتني من فريضتك التي فرضتها علي من الصلاة »[٢]

وبدأ هذا الدعاء بالنداء لإظهار شدة الرغبة والحاجة في تحقق مراده ، وحذف حرف النداء حتى لا تكون فاصلاً ومؤخراً عن الدعاء ، ولفظ الربوبية الذي افتتح به الدعاء يدل على طلب التحنن والتودد والحرص الشديد على إجابة الدعاء ، فمن كان رباً فهو لا يضيع مربوبه وهو أهل لأن بجيب تضرع مربوبه.

ولماذا وحد الضمير في قوله (رب) أجاب عن ذلك أبو السعود فقال « وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته أيضا حيث قال ومن ذريتي أي بعضهم من المذكورين ومن يسير سيرتهما من أولادهما للإشعار بأنه المقتدى في ذلك وذريته أتباع له وأن ذكرهم بطريق الاستطراد لا كما في قوله ربنا إني أسكنت الخ فإن إسكانه مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن اسكنه إنما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذي هو مخصوص بذريته » [٣]

والفعل (اجعل) هو أبلغ فعل يدل على طلب الاستمرار ، على الإقامة ، أي : صيرني مقيماً أين ما كنت وحبب الإقامة إلى نفسي واخلطها بلحمي ودمي وعظامي ، والألفاظ مهما كانت بلاغتها تعجز عن الوفاء بإبراز معنى الفعل (اجعل) .

ثم أكد الدعاء الأول حيث كرره مرة ثانية بأن يتقبل دعاءه ، وهذا يدل دلالة واضحة على أهمية إقامة الصلاة حيث دعا ثم دعا بقبول الدعاء قال صاحب التحرير والتنوير « ودعاؤه بِتَقَبل دعائه ضراعة بعد ضراعة. » [٤]

---

(١) تفسير الألوسي ج ١٣ ص ٢٤٣
(٢) تفسير الطبري ج ١٣ ص ٢٣٥
(٣) تفسير أبي السعود ج٥ ص ٥٤
(٤) التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٤٤

ولم في البداية قال (رب) ثم قال (ربنا) ؟لأنه – عليه السلام – دعا لنفسه أولاً ثم بعد ذلك دعا لذريته ثم جمع الدعاء بقبول الاثنين ، ونتعلم من هذا أن الداعي يبدأ بنفسه ثم بأشد الناس قرابة له ثم للعامة من المؤمنين وهذا يفهم أيضاً من قوله بعد ذلك (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) (ابراهيم:٤١)

ولماذا خص نبي الله إبراهيم بعض ذريته بالدعاء أجاب عن ذلك أبو السعود فقال « وإنما خص هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضا منهم لا يكون مقيم الصلاة كقوله تعالى ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » [١] وقال البيضاوي « من ذريتي عطف على المنصوب في اجعلني والتبعيض لعلمه بإعلام الله أو استقراء عادته في الأمم الماضية أن يكون في ذريته كفار »[٢] وكذلك نقل الألوسي عن أبي البقاء أن (من) للتبعيض [٣]

ورجح صاحب التحرير والتنوير كون من ابتدائية وضعف كونها للتبعيض فقال « و{من} ابتدائية وليست للتبعيض ، لأن إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ لا يسأل الله إلا أكمل ما يحبه لنفسه ولذريته. ويجُوز أن تكون {من} للتبعيض بناءً على أن الله أعلمه بأن يكون من ذريته فريق يقيمون الصلاة وفريق لا يقيمونها، أي لا يؤمنون. وهذا وجه ضعيف لأنه يقتضي أن يكون الدعاء تحصيلاً لحاصل ، وهو بعيد، وكيف وقد قال: {واجنبني وبني أن نعبد الأصنام (سورة إبراهيم: ٣٥) ولم يقل: ومن بَنِيّ. [٤]

وذهب الطبري إلى أن المراد بالدعاء في قوله (ربنا وتقبل دعاء) العبادة فقال « (ربنا وتقبل دعاء) يقول ربنا وتقبل عملي الذي أعمله لك وعبادتي إياك ، وهذا نظير الخبر الذي روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)»[٥]

---

(١) تفسير أبي السعود ج٥ ص ٥٤
(٢) تفسر البيضاوي ج٣ ص ٣٥٣
(٣) انظر تفسير الألوسي ج١٣ ص ٢٤٣
(٤) التحرير والتنوير ج ١٣ ص٢٤٤
(٥) تفسير الطبري ج ١٣ ص ٢٣٥

وذهب أبو السعود إلى أن الدعاء هنا جاء على أصله فقال « ربنا وتقبل دعاء ، أي : دعائي هذا المتعلق بجعلي وجعل بعض ذريتي مقيمي الصلاة ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الأصنام ولذلك جيء بضمير الجماعة »[١]

خاتمة

وبعد فهذا موضوع يتعلق بإقامة الصلاة ، حيث كثر حديث القرآن الكريم عنه بأساليب متنوعة وبطرق متباينة ، وفي سياقات مختلفة ومقامات متعددة ، تثير الانتباه وتلفت النظر ، وتدعو إلى التأمل ، وألمس في هذا دلالة واضحة على الأهمية

وقد عايشت هذا الموضوع أتأمله وأكرر النظر فيه قرابة عام ، وعشت مع معانيه وما ترمي إليه تلك الألفاظ التي صيغت به

وبعد هذه المتعة التي أحسستها وشعرت بها أصبحت على يقين من أهمية هذا الموضوع وجدارته بالبحث .

عرفت كيف ولماذا امتدح الله قوماً بسبب محافظتهم على الصلوات واهتمامهم بشؤنها ، وإدراكهم بمميزاتها ، وشعورهم بالراحة والسكينة عند التلبث بها ، كل ذلك بأساليب تفيض عذوبة ورقة ، ومعاني تتسم بالقوة والإقناع .

وكيف نبه الله قوماً تكاسلوا عن إقامتها والتهيؤ لها وكيف ؟ كانت سبباً في هلاك أقوام لأنهم ضيعوها ، ولم يكونوا في زمرة أهلها .

وقد عايشت هذا التنوع في هذا العرض ، من جملة اسمية إلى جملة فعلية، والفعلية إما فعلها ماض ليدل على التحقق ، أو فعلها مضارع ليدل على حصول التجدد أو طلبه أو لأمر ليستمر من هو متلبس بالفعل ، ويبدأ من هو معرض ومتكبر .

والسبب في تنوع هذه الأساليب اختلاف المقامات والأحوال ، فالحديث مع أهل الإيمان يختلف عن الحديث مع أهل الكفر والنفاق .

وبعد هذه الرحلة الطويلة أهيب بالأساتذة الدارسين وطلاب هذا الفن والمشتغلين به أن تكون لهم دراسات تتتبع اللفظة القرآنية في سياقاتها للوقوف على الفروق ، من حيث القلة أو الكثرة ، ومن التنوع والاختلاف في العرض .

---

(١) تفيير أبي السعود ج٥ ص ٥٤

وأشكر الله – تعالى – على توفيقه ، وأسأله غفران الزلل ، والعفو عن الخطأ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

المراجع والمصادر

١ -- أنموذج جليل في أسئلة أجوبة عن غرائب آي التنزيل – للإمام زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي – تحقيق – عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي الناشر دار عالم الكتب السعودية

٢ -- أحكام القرآن اسم المؤلف :: أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر ولادة المؤلف :: ٣٠٥-- وفاة المؤلف :: ٣٧٠-- دار النشر :: دار -- إحياء التراث العربي-- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٤٠٥عدد الأجزاء :: ٥ اسم المحقق :: محمد الصادق قمحاوي

٣ -- أسرار ترتيب القرآن -- اسم المؤلف :: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل-- ولادة المؤلف :: ٨٤٩-- وفاة المؤلف :: ٩١١-- دار النشر :: دار الاعتصام-- مدينة النشر :: القاهرة-- عدد الأجزاء :: ١-- اسم المحقق :: عبد القادر أحمد عطا

٤ -- إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء د/ محمد موسى

٥ -- البحر المحيط – أسم المؤلف—محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي – ولادة المؤلف – ٦٥٤-ه – وفاة المؤلف – ٧٥٤ –ه دار النشر المكتبة التجارية مصطفي أحمد الباز – مدينة النشر مكة المكرمة .

٦ -- البرهان في علوم القرآن -- اسم المؤلف :: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله-- -- ولادة المؤلف :: ٧٤٥-- وفاة المؤلف :: ٧٩٤-- دار النشر :: دار المعرفة-- -- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٣٩١-- -- عدد الأجزاء :: ٤اسم المحقق :: محمد أبو الفضل إبراهيم

٧ -- بدائع الفوائد ، للإمام ابن القيم٨ -- التبيان في أقسام القرآن -- اسم المؤلف :: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله-- ولادة المؤلف :: ٦٩١-- وفاة المؤلف :: ٧٥١ دار النشر :: دار الفكر-- عدد الأجزاء :: ١

٩ -- التبيان في تفسير غريب القرآن -- اسم المؤلف :: شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري ،وفاة المؤلف :: ٨١٥--دار النشر :: دار الصحابة للتراث بطنطا-- -مدينة النشر :: القاهرة-- سنة النشر :: ١٩٩٢رقم الطبعة :: الأولى-- اسم المحقق :: د.فتحي أنور الدابولي

١٠ -- التبيان في إعراب القرآن-- اسم المؤلف :: أبو البقاء محب الدين عبدالله بن أبي عبدالله الحسين بن أبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري -- ولادة المؤلف :: ٥٣٨--وفاة المؤلف :: ٦١٦-- دار النشر :: إحياء الكتب العربية-- اسم المحقق :: علي محمد البجاوى
١١ -- التحرير والتنوير – أسم المؤلف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور – دار النشر دار سحنون للنشر والتوزيع مدينة النشر تونس .
١٢ -- الإتقان -- اسم الكتاب :: إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن اسم المؤلف :: محمد بن محمد بن محمد الغزي-- ولادة المؤلف :: ٩٧٧-- وفاة المؤلف :: ١٠٦١-- دار النشر :: الفاروق الحديثة-- مدينة النشر :: القاهرة-- سنة النشر :: ١٤١٥-- رقم الطبعة :: الأولى-- عدد الأجزاء :: ٢-- اسم المحقق :: خليل محمد العربي
١٣ -- تفسير البيضاوي -- وفاة المؤلف :: ٧٩١-- دار النشر :: دار الفكرمدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٤١٦ - ١٩٩٦-- عدد الأجزاء :: ٥-- اسم المحقق :: عبد القادر عرفات العشا حسونة--
١٤ -- تفسير القرطبي --اسم المؤلف :: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله-- وفاة المؤلف :: ٦٧١-- دار النشر :: دار الشعب-- مدينة النشر :: القاهرة-- سنة النشر :: ١٣٧٢ -- رقم الطبعة :: الثانيةعدد الأجزاء :: ٢٠-- اسم المحقق :: أحمد عبد العليم البردوني
١٥ -- التفسير القيم للإمام بن القيم
١٦ -- تفسير الثعالبي -- اسم المؤلف :: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي-- دار النشر :: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات-- مدينة النشر :: بيروت
١٧ -- تفسير أبي الصعود -- اسم المؤلف :: محمد بن محمد العمادي أبو السعود وفاة المؤلف :: ٩٥-- دار النشر :: دار إحياء التراث العربي-- مدينة النشر :: بيروت-- عدد الأجزاء :: ٩
١٨ -- تفسير الرازي ، اسم المؤلف – فخر الدين الرازي – الناشر دار الغد العربي مضر القاهرة.
١٩ -- تفسير ابن كثير -- سم المؤلف :: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء-- وفاة المؤلف :: ٧٧٤-- دار النشر :: دار الفكر-- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٤٠١
٢٠ -- تفسير البغوي-- اسم الكتاب :: معالم التنزيل-- اسم المؤلف :: الحسين بن مسعود الفراء البغوي أبو محمد-- وفاة المؤلف :: ٥١٦-- دار النشر :: دار المعرفة-- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٤٠٧ - ١٩٨٧-- رقم الطبعة :: الثانية-- عدد الأجزاء :: ٤-- اسم المحقق :: خالد العك - مروان سوار
٢١ -- تيسير الكريم الرحمن – عبد الرحمن ناصر السعدي
٢٢ -- تفسير الطبري -- اسم المؤلف :: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر-- ولادة المؤلف :: ٢٢٤-- وفاة المؤلف :: ٣١٠-- دار النشر :: دار الفكر-- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٤٠٥
٢٣ -- دقائق التفسير -- سم المؤلف :: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس -- ولادة المؤلف :: ٦٦١-- وفاة المؤلف :: ٧٢٨-- دار النشر :: مؤسسة علوم القرآن-- مدينة

النشر :: دمشق -سنة النشر :: ١٤٠٤-- رقم الطبعة :: الثانية-- اسم المحقق :: د. محمد السيد الجليند
٢٣ -- روح المعاني -اسم الكتاب :: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني-- اسم المؤلف :: محمود الألوسي أبو الفضل-- وفاة المؤلف :: ١٢٧٠-- دار النشر :: دار إحياء التراث العربي-- مدينة النشر :: بيروت-- عدد الأجزاء :: ٣٠-
٢٤ -- زاد المسير-- اسم الكتاب :: زاد المسير في علم التفسير
اسم المؤلف :: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي-- ولادة المؤلف :: ٥٠٨-- وفاة المؤلف :: ٥٩٧-- دار النشر :: المكتب الإسلامي-- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٤٠٤-- رقم الطبعة :: الثالثةعدد الأجزاء :: ٩
٢٥ -- سنن الترمزي الجزء الخاص في التفسير -- اسم المؤلف :: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي-- عدد الأجزاء :: ٠--
٢٦ -- غرائب التفسير وعجائب التأويل ، ،محمود بن حمزة الكرماني ، تحقيق د/
٢٧ -- غرائب التنزيل ، الإمام محمد بن ابي بكر الرازي، تحقيق عبد الرحمن بن
٢٨ -- فتح القدير -- اسم الكتاب :: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير-- اسم المؤلف :: محمد بن علي بن محمد الشوكاني-- ولادة المؤلف :: ١١٧٣-- وفاة المؤلف :: ١٢٥٠-- دار النشر :: دار الفكر-- مدينة النشر :: بيروت-- عدد الأجزاء ::٥
٢٩ -- الكشاف ، جار الله الزمخشري .دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت .
٣٠ -- نواسخ القرآن -- اسم المؤلف :: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج- - ولادة المؤلف :: ٥٠٨---- وفاة المؤلف :: ٥-- دار النشر :: دار الكتب العلمية-- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٤٠٥-- رقم الطبعة :: الأولى-- عدد الأجزاء :: ١
٣١ -- لسان العرب -- اسم المؤلف :: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري-- ولادة المؤلف :: ٦٣٠-- وفاة المؤلف :: ٧١١-- دار النشر :: دار صادر-- مدينة النشر :: بيروت- - رقم الطبعة :: الأولى-- عدد الأجزا١٥ شمر بن سركال العجيلي . ،وإبراهيم المطرودي – دار عالم الكتب السعودية .
٣٢ -- مناهل العرفان-اسم المؤلف :: محمد عبدالعظيم الزرقاني-- دار النشر :: دار الفكر -- مدينة النشر :: بيروت-- سنة النشر :: ١٩٩٦-- رقم الطبعة :: الأولى--اسم المحقق :: مكتب البحوث والدراسات- الشريف – دار الأندلس الخضراء جد
٣٣ --- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر المؤلف ضياء الدين بن الأثير - تحقيق / د أحمد الحوفي ، ود / بدوي طبانة - دار الرفاعي بالرياض - طبعة ثانية .
٣٤ -- مجمع البيان للطبرسي –دار المعرفة بيروت .

٣٥ -- مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب ، ابن هشام .